روايات مصرية للجيب

34

أسطورة الشاحبين

ما وراء الطبيعة

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

٢١٦٨٩

د. أحمد خالد توفيق

أسطورة الشاحبين

ثمة أشياء غريبة في (هالماجيو) .. أشياء من التي لاتقال إلا همسا جوار المدفأة ليلاً .. حينما تتأكد أن الأطفال ناموا .. وتستوثق من أن بابك موصد .. وأن الكلب لاينبح في الجرن ؛ لأنه يشعر بشيء غريب .. إنها قصة عن (هو) - الذي يمشي في الظلال - وإخوة الدم وأعياد الخصوبة .. وكل الخزعبلات التي جاءت كي تبقى ..

مقدمة

في ضوء المشعل استطعت أن أرى الحقيقة ..

لقد رأيت كثيرًا من الجثث الممددة في توابيت من الخشب الثمين ، والمبطنة بالحرير .. ورأيت الدم على شفاه بعض تلك الجثث .. ورأيت البشرة الشاحبة والنابين البارزين ..

رأيت ما يكفي من الجثث في حياتي كي أعرف مصاص الدماء حين أراه .. ولا أستطيع أن أفخر بأنني غرست أوتادًا كثيرة في صدور هؤلاء ، لكني بالتأكيد أستطيع أن أفعل هذا بنجاح ..

لشدّ ما تبدّل د.(وينسلو) !

إنه الآن (غير ميت) .. وهي كلمة لا تعني أبدًا أنه حيّ .. لكي تفهم الفارق الباهت بين (حيّ) و(غير ميت) يجب أن تكون مصاص دماء ..

وقال لي (مايكل) بصوت مبحوح :

ـ « هل تغرس الوتد ؟ »

نظرت له وابتلعت ريقي ..

كلما حسبت أننى أعرف كل شىء عن مصاصى الدماء ؛ كلما أدركت مبلغ سذاجتى ..

لقد كان تعاملى مع تلكم المخلوقات الطيفية سلسلة لا تنتهى من الأغلاط الفادحة ، ولا أقول الفاضحة .. حماقات لا أول لها ولا آخر ..

وتذكرت قصة الشاحبين ..

وارتجف الوتد فى يدى ..

أحقاً لم أحكها لكم بعد ؟

غريب !

إذن هلموا لحكها لكم بسرعة وقبل أن ينهض مصاص الدماء من غفوته .. وقبل أن ينادى المنادون يعلنون ملكوت الظلام ..

كانت القصة كما يلى ..

★ ★ ★

تمهيد

د. رفعت إسماعيل

ساد تعبير (مصاصى دماء هامر) بين مشاهدى أفلام الرعب ، بسبب أفلام شركة (هامر) البريطانية التى قدمت لنا أهم أفلامهم .. وفيها يبدو مصاصو الدماء فاغرى الأفواه عن أنيابهم ، يرتدون عباءات سوداء مبطنة بالأحمر ، ولهم لون شاحب مخيف .. وكلهم يموتون عند رؤية ضوء الشمس والصليب وعند شم رائحة الثوم ..

كل هذا جميل .. لكنه غير صحيح على الإطلاق !

★ ★ ★

www.ahlafahreen.com/vb3 AHLAFAHREEN

(رومانيا) من جديد !

تسألون لماذا (رومانيا) من جديد ؟

سؤال غريب وإجابة أغرب حتمًا .. أنا لم أر (رومانيا) منذ عشر سنوات تقريبًا .. ولى فيها صديق حميم هو (جوستاف تيكولسكو) الصحفى الرومانى الشاب شديد الذكاء والمرح .. كما أن لى فيها قصة رهيبة مع المذءوب .. إننى أحبها لأنها أول قصة حكيتها لكم ..

إن (رومانيا) بلد غريب تختلط فيه التأثيرات الأوروبية والتركية واليونانية ، وبه أساطير يشيب لهولها الولدان كما يقولون ..

إن ما تسميه نحن (رومانيا) لهو خليط من أقاليم عدة مثل : (دالماشيا) ـ أو (داخيا) ـ و(والاشيا) و(الكريات) و(مولدافيا) .. وبالطبع (ترانسلفانيا) الرهيبة التى صارت مزارًا سياحيًا للسيّاح الراغبين فى رؤية قصر (فلاد المخوزق) كما يسمّونه(*) .

(*) ترجمة لاسم : Vlad the Empaler

وذلك لأنه كان يهوى التهام طعامه وهو ينعم برؤية أعدائه الأتراك فوق الخوازيق .. وقد أطلق عليه الأهالى اسم (دراكيولا) .. أى (الشيطانى) ..

ويقال إن (دراكيولا) مشتقة من لفظة (دراجول) أى (التنين) لأن هذا هو شعاره الإقطاعى ..

تقول الأساطير الرومانية إن (جانب النجوم) هو عالم موازٍ لنا ، يمرح فيه مصاصو الدماء والمذءوبون .. لكن هذا العالم ـ كأى شىء فى الواقع ـ مثقوب .. وهذا الثقب يسمح بمرور مصاص لماء أو مذءوب من آن لآخر ؟

وتسألون لماذا (رومانيا) من جديد ؟

لأننى أنا (رفعت إسماعيل) .. ومن المستحيل أن أظل بمنأى عن هذا الموضع أكثر من عشرة أعوام ..

★ ★ ★

كما يقولون فى القصص : بدأ كل شىء بخطاب وصلنى من (جوستاف تيكولسكو) ..

لم تنقطع المراسلات بيننا لحظة طيلة هذه السنين ، وقد صار (جوستاف) رئيسًا لتحرير مجلة نسائية متوسطة الشهرة ، ويبدو أن الرفيق (شاوشيسكو) كان راضيًا عنه ..

إن (جوستاف) يجيد التحايل وإخفاء آرائه السياسية المناهضة للشيوعية .. والدليل على ذكائه أنهم لم يعدموه بعد ..

كان الخطاب مليئًا بالمودة والظرف .. وإن لم ينس سؤاله السمح عما إذا كنت تزوجت بعد .. ألن ينسى الناس هذا الموضوع أبدًا ؟؟

سأتجاهل بعض الفقرات الخاصة أو الخاصة جدًا .. أو التى لا أريد أن يعرفها سواى والرومانى .. ثم أقدم لكم هذه الفقرة

- « (رفعت) .. إن مجلتى عاكفة على تقديم سلسلة من التحقيقات عن الظواهر الميتافيزيقية .. ذلك الهراء الذى تهواه أنت ، والذى يروق للنساء كثيرًا .. فالنساء مولعات بالشموع التى تتحرك ، وشبح الكونتيسة الذى يعبر الردهة فى الواحدة صباحًا .. وكلما كان الأمر مريعًا كلما كان هذا أفضل .. »

« لدىّ حشد من الخيوط يمكن البدء بأى منها .. لكنى لم أرد أن أبدأ دون أن تكون معى ها هنا .. »

« إننى أذكر العمل الرائع الذى قمنا به ها هنا منذ أعوام فى (كراكوفسكا) مع المذعور بياه .. وأعتقد أن هذا بعينه هو ما أريد أن تشاركنى فيه .. »

(قمت بحذف باقى الفقرة لأن بها مزاحًا سمجًا) ..

« العرض هو البساطة ذاتها : ستحصل تذكرة طائرة ومعها ترتيب كامل للإقامة لمدة شهر .. »

« عندما تقبل سيأتى دور التفاصيل .. »

« فكر جيدًا .. إنها سياحة مجانية لا تتاح لكثيرين .. أما أنا فسوف أربح رأيك الصائب وخبراتك .. ثم إن الرومان ينغمسون أكثر فى الأحداث إذا لم يكن بطلها رومانيًا .. فألحان عازف المزمار فى القرية المجاورة أعذب من ألحان عازفنا .. »

هذا التعبير الأخير هو طريقة رومانية لقول (الشيخ البعيد سرّه باتع) أو (زامر الحىّ لا يطرب) ..

كان العرض مغريًا ..

إن إجازتى دانية .. وأنا لم أسافر للخارج منذ زمن ..

لم لا ؟ بالتأكيد أنا لا أهوى تربية العناكب فى دارى .. لكن منظر خيوط العنكبوت ، وطبقة الغبار على الأثاث لدى عودتى من الخارج ، لتبعثان حنينًا قويًا فى روحى ..

وهكذا ..

بعد أسبوعين كنت جالسًا فى الطائرة أنتظر لحظة الهبوط فى مطار (بوخارست) ..

وأخذت شهيقًا عميقًا ، وقذفت بقطعة من اللادن فى فمى ، كى لا تنفجر أذناى ..

حان وقت الاسترخاء .. أو العمل الشبيه بالاسترخاء ..

ولمرة الترليون كنت سائحًا .. سائحًا ..

★ ★ ★

فى المطار تعرفته بصعوبة .. كان قد امتلأ ووضع العوينات وبدا أكثر أناقة .. (رجل فى منتصف العمر تلوح عليه أمارات التعسة) كما يقولون فى الروايات .. وقد دفع ضريبة التجاح من شعر رأسه المتساقط ..

وحين تعرفته صحت معتزًا وأنا أقلد خدمه كعادتنا وعادتهم :

ـ « (جوستاف) ! إنك تزداد بهاء .. لم أتعرفك لأنى حسبتك نهارًا مشمسًا ! »

وهو تعبير مسروق من (مارك توين) لكنه أسعده كثيرًا فردّ المجاملة :

ـ « وأنا لم أتعرفك لأنى حسبتك مصيبة .. »

ـ « هذا لطيف منك .. »

ـ « ألم تمت بعد ؟ »

ـ « كما أن الشيوعيين لم يشنقوك بعد .. إنها لمعجزة .. »

ودسّ يديه فى جيبى معطفه الثمين الذى تعلوه ياقة مبطنة بـ (الاستراخان) ـ أو هكذا أحسبه ـ وقال فى فخر :

ـ « الأمور على ما يُرام .. يبدو أننى أزداد فهمًا للحياة .. »

وخرجنا من المطار دون إجراءات جمركية تقريبًا .. ومع مزيد من الاحترام ، برغم أن كل مقتشى الجمارك فى الكون يكرهوننى بشكل خاص كأننى زعيم (المافيا) الهارب ، أو ملك تجارة (الهيروين) فى العالم ..

وفى سيارته الـ (زيارودجيتس) الفاخرة ، أشعل لنفسه سيجارًا عملاقًا وقال وهو يمسك المقود بيد واحدة :

ـ « ستقيم فى فندق (بلوبستى) .. وهو فندق فاخر .. »

ـ « هذا يسرنى .. فقد سئمت الأكواخ الملأى بالبراغيث .. »

ثم إنه راح يسألني عن آخر أخباري ..

قلت له إن الأمور على ما يرام .. فلم أك راغبًا في أن أسكب فوق رأسه كل هذا الخليط من أوراق (التاروت) ، وكهنة التبت ، والدمى المسحورة ، والعوالم الموازية .. إلى آخر هذا الهراء .. »

ثم إنني سألته :

ـ « هلا تكلمنا في الأعمال ؟ »

ـ « الأعمال ؟ آه ! دائمًا الأعمال .. لننتظر حتى نصل إلى الفندق وهناك أعرض عليك ما لدىّ من خواطر .. »

★ ★ ★

جلس على الأريكة الوثيرة في حجرتي ، ومدّ يده إلى جيبه ليخرج بعض الأوراق .. وكما توقعت ، نزع عويناته ليبعد الأوراق بعيدًا إلى أبعد نقطة من مجال بصره .. إنه قد تقدم في العمر وبدأ يصاب بطول النظر .. منتصف العمر .. سنّ النجاح الاجتماعي وطول النظر وتضخم البروستاتا والنوبات القلبية .. »

قال لي وهو يتأمل الأوراق :

ـ « هي ذي بعض الخواطر كتبتها لك .. لن أثقل عليك ، فأنت مُرهق بعد رحلة الطائرة .. لذا سأتركها لك ..

على أن تتصل بي حين تشعر بأنك تميل إلى موضوع معين .. »

ونهض ليضع قبعته على رأسه معلنًا انتهاء اللقاء ..

ما إن انصرف حتى طوحت بفردتي حذائي ، وانتزعت تلك المشنقة التي يسمونها ربطة العنق ، وخلعت سترتي ثم ارتميت في الفراش كجثة غارقة ..

وكان الفضول أقوى مني ، فمددت يدي إلى الأوراق أتصفحها بسرعة .. وكانت ـ حقًا ـ حفنة من الخواطر :

١ ـ المقبرة المفتوحة دائمًا في مدفن (كلوج) ..

٢ ـ في (مامايا) على البحر الأسود .. يسمعون الغناء ليلاً .. يبدو أنها حكاية شبيهة بـ (لورالاى) لدى الألمان .. (عرائس بحر ؟) .

٣ ـ شاب له القدرة على السفر عبر الأزمان (أو هكذا يزعم) .. يقول إنه كان محاربًا من الفرنجة .. وكان غازيًا تركيًا .. المشكلة هي أنه يملك أدلة قوية حقًا ..

٤ ـ عالم يزعم أنه يعرف مكان تابوت العهد المذكور في التوراة .. لكنه لن يفصح عنه إلا مقابل

بضعة ملايين من (اللايات) .. لا أحد يعبأ به لكنه موضوع مثير حقًا ..

٥ ـ إشاعات عن فرقة من النازيين ما زالت حية بعد الحرب .. وتجوّل بين القرى ليلاً .. يقال إنهم دخلوا في أثناء غارة للحلفاء وأن ما نراه هو أشباحهم ..

٦ ـ صيدلي في (بوكوفينا) يزعم أن القرية كلها تثير ريبته .. لكنه لا يستطيع إثبات كلامه ..

٧ ـ معتوه في (كونستانتا) يتصل بشكل منتظم بسكان (زحل) .. وهم كالعادة ينوون غزو الأرض .. كل هذا جميل ، لكن عنده سبيكة من معدن يقسم الجيولوجيون بقبور أمهاتهم إنه غير أرضي ..

كانت كل نقطة مكتوبة في ورقة بعينها بخط جميل .. وقد أثار كل هذا شغفي .. لكن سني لا تسمح لي بالبحث عن الأفكار المفزعة أو التي توحي بمتاعب قادمة لا ريب فيها ..

مثلاً بالنسبة للقبر المفتوح .. أنا لا أحب القبور المفتوحة كثيرًا كما تعلمون .. أما عن (لورالاي) فأعتقد أنها كلام فارغ كالعادة ..

المسافر عبر الأزمان يذكرني بـ(هـ ـ ثشو ـ كان) ..

وأعتقد أن كاهنًا أخيرًا واحدًا يكفي المرء طيلة حياته ..

موضوع (تابوت العهد) محبب لدى اليهود ، ولوثت أن أشمّ رائحة عبرانية واضحة في الموضوع .. رائحة تجعلني أتراجع ..

النازيون مرعبون بما يكفي وهم أحياء .. فكيف بأشباحهم ؟

أما معتوه (كونستانتا) فمن المؤكد أنه معتوه ..

إذن يبقى أمامنا أخونا الصيدلي الرومانسي المرتاب .. طبعًا لن يستقر الأمر إلا عن حالة (بارانويا) متقدمة ، من طراز (إنهم يكرهونني) .. وهذا يناسبني ..

وأخيرًا غلبني التعاس فنمت حيث أنا ، والأوراق في يدي .. وحين صحوت كان ضوء النهار يغمر الحجرة ..

طلبت رقم الهاتف الذي أعطانيه (جوستاف) .. فسمعت صوت سكرتيرة تسأل بالرومانية عن شيء ما .. غالبًا تسأل من أنا ؟

وأخيرًا سمعت صوت (جوستاف) المرح يسألني :

ـ « هيه ؟ علام استقررت ؟ »

قلت وأنا أتثاءب :

ـ « هاااه .. على الصيدلى المرتاب .. »

ـ « غريب ! حسبتك متحمساً لفرقة التازبين الجوالة .. »

ـ « لم تعد صحتى تتحمل الأشباح التازية يا (جوستاف) .. »

ضحك طويلاً ضحكته المجلجلة الرنانة .. ثم قال :

ـ « لكن .. أعد حاجياتك لأننا راحلان إلى (بوكوفينا) .. »

ـ « هل ستصحبنى ؟ ظننت مشغولياتك .. »

ـ « إن إجازتى تبدأ بعد يومين .. واعتقد أن (بوكوفينا) مكان مناسب لقضاء وقت طيب .. ومنها إلى قرية (هالماجيو) .. »

ـ « والتفاصيل ؟ »

ـ « ستعرف كل شىء فى الطريق .. كل شىء .. » .

★ ★ ★

حكاية الصيدلى المرتاب

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال الصيدلى (يوليان بوسكو) :

بالتأكيد توجد أمور غريبة فى (هالماجيو) ..

توجد أشياء معينة من التى لا تقال إلا همسًا جوار المدفأة ليلاً ، حينما تتأكد من أن الأطفال قد ناموا ، وحينما تستوثق من أن أبوابك موصدة ، وأن الكلب لا ينبح فى الجرن لأنه يشعر بشىء غريب ..

أمس صارحت القس الأب (كونستانتين) بهواجسى ، فهز رأسه الأشيب عدة مرات ، ولم ينصحنى سوى بإغلاق بابى ليلاً .. والصلاة ..

وهأنذا أوصدت بابى .. وأحضرت الكتاب المقدس ورحت أقرأ منه ، داعيًا الرب أن يأتى الصباح سريعًا ..

★ ★ ★

ربما بدأ كل شىء فى (مايو) الماضى ..

ربما بدأ قبل هذا لكنى لست واثقًا من شىء .

إن (الكسندر) صبى ذكى لكنه شيطان صغير ، من النوع الذى لا يكف عن جذب ذيول القطط وتهشيم زجاج الجيران ..

إنه أشقر الشعر له وجه ملوث بالحلوى والطين .. وله سنان ناقصتان تجعلانه يبدو كشيطان زنيم ..

لكن القرية كلها كانت تحب (الكسندر) .. حتى وهم يشكون لأبيه .. (مازورسكو) تهشيمه لزجاج النافذة ، أو قذفه أبناءهم بالوحل ، أو سرقة تفاحة ، أو ثقب إطار الدراجة التى تركها أحدهم أمام بابه .. حتى وهم يشكون لأبيه كانوا يحبونه ..

وفى صباح (مايو) المذكور قابلته وهو عائد من القرية .. جاء متجرى ليطلب بعض حلوى النعناع ..

- « كل هذه الحلوى ستفسد أسنانك يا (ألكسندر) .. ولسوف تغدو بلا أسنان كالعلقة .. »

فتحتها له وأنا أفتح المرطبان وأعد أقراص النعناع ، ثم أضعها له فى قرطاس ورقى كبير ..

قال لى وهو يمتص قرصه الأول :

- « النعناع لا يتلف الأسنان .. هل لديك ماء بارد ؟ »

فالصباح كما قلت لك صباح من شهر (مايو) .. حيث القيظ يجثم على الأنفاس ، والطبيعة كلها تبدو ككلب لاهث يرقد فى الظل مخرجًا لسانه فى استرخام ..

أحضرت له كوبًا من الماء من الدورق الذى يسبح

قلتها له وأنا افتح المرطبان واعدّ اقراص النعناع ،
ثم أضعها له في قرطاس ورقي كبير ..

فيه مكعبان من الثلج ـ ما أحلى ماء البارد بعد حلوى النعناع ! سمعته يشهق من الشعوة الحارقة التي غمرت حلقه .. وقال في صوت مبحوح :

ـ « هآآآآآه ! ما أجمله ! »

ووضع الكوب على (الكاونتر) أمامي ..

وتوقعت أن ينصرف .. لكنه بدا حائرًا قليلاً .. كان يريد قول شيء لكنه لا يجد الكلمات المناسبة ..

ـ « هل ثمة ما تريد قوله ؟ »

راح يرمق الأرفف التي تعج بالأدوية .. ثم سألني :

ـ « هل أنت تفهم في جميع الأمراض ؟ »

هززت كتفي في عدم اكتراث :

ـ « لست طبيبًا .. لكني أعرف أشياء كثيرة .. »

عاد يسألني وهو يهرب بعينيه من نظراتي :

ـ « ما معنى أن يكون الواحد شاحبًا ؟ »

ـ « أشياء كثيرة .. مثلاً حين تهشم الأكواب الملونة التي تعتز بها أمك تصير شاحبًا .. حين تنزف دمًا كثيرًا تصير شاحبًا .. حين تصاب بالأنيميا تصير شاحبًا .. »

ـ « ما هي (الأنميا) ؟ »

هنا تذكرت أن أباه جعله يترك المدرسة منذ زمن كي يعاونه في متجرة .. لم أجد تعريفًا مناسبًا لـ (الأنيميا) فقلت له :

ـ « هي فقر الدم .. حين يكون دمك قليلاً .. »

عاد يسألني :

ـ « وهل عندك علاج لهذه (الأنميا) ؟ »

ـ « هل تريد علاج أحد معين ؟ »

هزّ رأسه .. ثم عاد يسألني بإلحاح :

ـ « هل عندك علاج معين لها ؟ »

مددت يدي إلى الرف فتناولت علبة من أقراص الحديد ، ووضعتها أمامه .. فتأملها في شغف .. لكني لم أدعه يأخذها .. وقلت :

ـ « لن تأخذها ما لم تقل لمن ؟ »

ابتلع ريقه للحظة .. ثم قال بعد تردد :

ـ « لأبي .. »

ـ « أبوك شاحب الوجه ؟ »

ـ « نعم .. ويخيفني كثيرًا .. »

هنا تذكرت أنني لم أر الأب (مزورسكو) منذ أسابيع .. إن متجره مغلق لكنه قد عودنا على ألا نقلق حين نرى شيئًا كهذا ..

فهو سكير .. ونوبات سكره تتكرر كل أربعة أشهر أو ثلاثة .. عندها يغرق في نوبة من البكاء والضحك ، ثم ينهال على امرأته ضربًا ويركل ابنه مرتين .. ثم يظل في الفراش لمدة أسبوع ..

بعدها يعود كل شيء إلى حالته الأصلية ..

ـ « بخيفك ؟ لا أفهم .. »

بدت الحيرة في عينيه الخضراوين .. وقال بارتباك (كأنه لم يرد أن يتكلم بهذه الكثرة) :

ـ « نعم .. يجلس وحيدًا في غرفة مقفلة .. والكلام كله من وراء الباب .. لكني رأيت وجهه .. وكان شاحبًا .. شاحبًا كليمونة .. »

ـ « وأمك .. ألم تسألها ؟ »

ـ « هي أيضًا لا تفهم .. تقول إن أبي مريض جدًا .. »

ـ « ودكتور (ميخائيل) .. ألم يزر البيت ؟ »

ـ « نعم .. فأبي يرفض أن يراه الأطباء .. »

ـ « وهل يخرج أبوك أحيانًا ؟ »

ـ « لا .. إنه جالس في هذه الحجرة طيلة الوقت .. لا يستحم ولا يبدل ثيابه حتى صارت رائحة الحجرة

شنيعة .. أمي تحضر له الطعام .. ووعاء يقضي فيه حاجته .. وتأخذ الوعاء صباح كل يوم لتفرغه وتنظفه .. »

شعرت بالهلع .. من المستحيل أن يختلق الصبي قصة كهذه .. مستحيل .. إن شيئاً ليس على ما يرام يحدث في هذا البيت .

ماذا أصاب التاجر الروماني البسيط ؟

سمعت أن هذه الأشياء تحدث لمرضى الاكتئاب .. كما أنها تحدث لمرضى الجذام الذين لا يحبون أن يراهم الناس يتأكلون .. كما أن مرضى الضمور Consumption كانوا يفعلون شيئاً كهذا فيما مضى .. قبل أن نعرف أن الـ Consumption هو الدرن .. ونعرف أن له علاجاً ..

قلت للصغير في حماس :

ـ « سآتي معك الآن لنرى أباك .. »

ـ « لن يحب هذا يا دكتور .. فهو .. »

ـ « لا مجال للمناقشة .. لحظة حتى أغلق المتجر .. »

★ ★ ★

كان المشوار مرهقاً في الحرّ .. فأنا بدين كخنزير لا أملك أية لياقة بدنية .. وقد راح العرق يغمر جسدي ويبلل حاجبيّ وينساب على عينيّ حارقاً لاذعاً ..

إن دار (ألكسندر) جميلة حقاً .. ويقال إن الأب بناها من أرباح القمار في شبابه .. ويبدو ـ إن كان هذا صواباً ـ أن داراً ساحرة كهذه يمكن الحصول عليها من شيء كريه كالقمار ..

قرعنا الباب ففتحت لنا (ماريا) الباب ..

وهي ـ في الخمسين من عمرها ـ تبدو كأنها في الثمانين .. كنا نتصور أن فرصتها للإنجاب قد فاتت ، لكنها فاجأتنا بصبي لشقر جميل هو (ألكسندر) ..

ما إن رأتني حتى اتسعت عيناها ذعراً .. لقد فهمت سر مجيئي .. فقلت لها :

ـ « هل (فيتور) في غرفته ؟ »

ابتلعت ريقها ولم تقل شيئاً .. فقط أفسحت لي طريق الدخول وهي ترمق الصبي بنظرة لا تحتاج إلى مترجم .. نظرة من نوع (هكذا ـ إذن ـ أيها ـ القرد ـ الصغير) ..

ودخلت إلى الدار .

حقاً كان الصبي محقاً .. إن رائحة البيت لا تطاق ..

هي ذي غرفة موصدة .. المرأة تقف جواري وترمقني بوجهها المجعد الشبيه بتفاحة ذابلة ، وتقول :

ـ « هو هنا .. حاول ألا تلح على رؤيته .. إنه ضيق الخلق .. »

مددت يدًا مترددة وقرعت الباب ..

فسمعت من يزمجر بالداخل ..

قلت في صوت مبحوح :

ـ « (فيتور) .. هل ثمة مشكلة ؟ »

عاد الصوت يزمجر :

ـ « من المتكلم ؟ »

ـ « أنا انصيدلى .. أنا (بونسكو) .. صديقك .. »

قال بصوت كخوار الثور :

ـ « انصرف يا (بونيان) .. أنا لن أفتح الباب .. »

ـ « هل ثمة مشكلة ؟ »

ـ « قلت لك انصرف .. »

نظرت للمرأة .. ولم أحتج إلى سؤالها .. إن الباب موصد من الداخل بالتأكيد ، وهو لا يفتحه إلا وقت الطعام ..

إنه يمارس كل ما يفعله المسجون الانفرادى ولكن بكامل إرادته .. قرعت الباب مرتين ثم أدركت أنه لن يفتحه أبدًا ..

نظرت للمرأة في حيرة وسألتها :

ـ « لماذا لم تخبرى أحدًا ؟ »

ـ « إننى أهاب جبروته .. فهو يعد بالتهام حنجرتى لو فعلت .. »

ـ « ليس التهام الحنجرة متاحًا لكل من يريد .. لماذا لم تبلغى الشرطة أو تستعينى بجارين قويين يهشمان الباب ؟ »

ـ « لا أريد أن يؤذيه أحد .. »

تنهدت في صبر .. وقلت :

ـ « الأمر الآن يختلف .. فهو يعرف أننى أعرف .. »

ـ « ومعنى ذلك ؟ »

ـ « معناه أنه سيلتهم حنجرتك إذا كان صادقًا ! »

بدا عليها الرعب كأنما تشعر بالفعل بأسنان زوجها الغليظة على حنجرتها .. وقالت في ارتباك :

ـ « والعمل ؟ »

ـ « علينا اقتحام الباب ومعرفة ما دهاه .. »

ولم أتركها تفكر كثيرًا ..

هرعت خارج الدار ، وطرقت باب الجيران طالبًا عون (تيبور) عامل البناء الذى يملك أكبر ذراعين

رأيتهما فى حياتى .. وكان غوريللا مشعرة تحب هذه الفرص التى تتيح إظهار القوة .. إن عملية تهشيم باب تناسب تمامًا فكرته عن (الاستمتاع بالوقت) ..

وجاء من داره جريًا وهو يبصق فى كفيه استعدادًا ..

سألته وأنا أنهث :

ـ « ألم يثر اختفاء الرجل ريبتكم ؟ »

ـ « بلى .. لكننا نعرف نوبات سكره .. واعتدنا أن نتجاهلها .. »

ودخل الدار لتفحص الباب بعين خبيرة ..

ولمرة الأخيرة أنذر التاجر بصوت غليظ :

ـ « (فيتور) .. نحن سنهشم الباب ما لم تفتحه .. »

ـ « اذهب إلى جهنم ! »

كانت هذه العبارة كافية لإثارة حماسه ..

تراجع للوراء واندفع بكتفه إلى الباب .. وكانت الدفعة كافية لأنى سمعت صوت المزلاج يتهشم .. ثم انفتح الباب ..

كانت الحجرة مظلمة تمامًا .. لكنى تعرفت هيكل (فيتور) الجالس أمام المنضدة .. وشممت الرائحة العطنة إياها ..

وفى اللحظة التالية كان (تيبور) يمسك بالتاجر من قفاه بينما هذا الأخير يصرخ فى جنون محاولاً التملص ..

لحظة عرفت ورأيت فيها أشياء كثيرة ..

ربما كان أول ما رأيت هو الشىء الأهم ..

لقد كان يمسك فى يده فأرًا ميتًا ..

* * *

ربما كان اول ما رايت هو الشيء الاهم .. لقد كان يمسك في يده فأرًا ميتًا ..

ليس الأمر متعلقًا بالجذام أو الدرن ..

إنه متعلق بالجنون .. الجنون المريع الذى يدفع إنسانًا لالتهام فأر دون ذرة اشمئزاز ..

ولقد تمكنا من إخراج (فيتور) إلى النور وسط صراخه وهياجه .. الحق أنه كان شاحبًا كالموتى .. لم أر قط هذا الشحوب على وجه إنسان حىّ ..

وتجمع الجيران ليروا ما يحدث .. ووقف (ألكسندر) يرمق المشهد دامع العينين ، وقد عاد مجرد طفل مذعور .

وبصعوبة تمكنا من اقتياد التاجر الثائر إلى عيادة د.(ميخاليل) الذى تهشم له طبقان ولوحا زجاج ، وأصابه الذعر فأعلن أنه غير قادر على السيطرة على هذا الوحش ..

- « خذوه إلى المخفر .. إلى الزنزانة وسأفحصه هناك ! »

وتمكنا من اقتياد التاجر المذعور - مرة أخرى - إلى المخفر .. كانت هناك زنزانة لا بأس بها وضعناه

فيها .. لكن ـ في هياجه المسعور ـ راح يضرب القضبان برأسه ، ويقول كلامًا مختلطًا لا نعرف كنهه .

لم نجد حلاً سوى اقتحام الزنزانة من جديد ، وتقييده بمعاونة (تيبور) ، حتى استطاع د.(ميخائيل) أن يدنو منه .. وهو يرتجف ذعرًا كمن يدنو من أسد .. وأفرغ محقنًا مليئًا بالفاليوم في وريده ..

وأخيرًا أطلق المريض شهقة طويلة ، ثم غاب في سبات هادئ .. واستطاع الطبيب أن يدنو أكثر .. وأن يتحسس نبضه ويفتح جفنيه .. وأعلن ما توصل إليه :

ـ « إنه مريض جدًا .. »

فتعالت الأصوات تمتدح عبقريته ، وطالبتنا بالمزيد فقال :

ـ « إنها حالة (أنيميا) متقدمة .. يبدو أنها أثرت على توازنه العقلي والنفسي .. »

ـ « والحل ؟ »

ـ « لابد من نقل بعض الدم له .. »

وتمّ الأمر بسرعة .. أحضر الطبيب بعض الكواشف الطبية وميكروسكوبًا ، وأجرى فحصًا لدمائنا فكانت دماء

(تيبور) العملاق هي الصالحة .. رباه ! لكم أبدى هذا البطل ذعرًا وهلعًا كأننا نريد استنزاف دمه حتى الموت .. واقتناعه مرارًا بأن هذا لن يؤذيه .. لكنه راح يهلوس كالنساء الثكالى وهو يرى الدم يتسرب من جسده ليملأ الزجاجة .

وأخيرًا تم إعطاء الدم للتاجر المريض .. صحيح أنه غير كاف لكنه جعل شفتيه تبدوان أكثر احمرارًا من الورق ..

وعدت لداري راضيًا فتناولت غذائي ، ثم عدت لمتجر الأدوية كي أفتحه ، وأمارس عملي من جديد ..

وفي المساء توفي التاجر (مازورسكو) ..

★ ★ ★

وقفت (إيرينا كالسكا) في متجري ، وراحت تتأمل قوارير الدواء في فضول .. ثم سألتني :

ـ « أريد علاجًا لفقر الدم الذي أعانيه .. »

تأملت شفتيها الحمراوين ، وخديها الشبيهين بتفاحتين ، وقلت :

ـ « أنت مصابة بفقر دم ؟ »

ـ « نعم .. أظن هذا .. »

- « لا أعتقد .. »

وهززت كتفى وعدت إلى ميزانى الحساس أزن به تركيبة السعال التى أصنعها ..

قالت فى إصرار :

- « لكنى أريد علاجًا لهذا الدم .. ليس من شأنك أن تمنعنى .. »

وأنا أمقت من يعاملنى كبغال ينحصر عمله فى أخذ النقود ، ولفّ السجق فى ورقة ، وتقديمه للزبون ..

إن لى رأيًا ينبغى احترامه ..

قلت لها فى جفاء :

« لو كنتُ نصابًا لأعطيتك ما تريدين .. »

ثم خطرت لى فكرة لا بأس بها فقلت :

- « هذا العلاج ليس لك طبعًا .. »

احمرّ وجهها قليلاً فعرفت أننى محقّ .. فأردفت :

- « ربما هو لوالدتك ؟ »

- « نعم .. لكنى لا أريد ذيوع السرّ .. »

- « هل هى تتصرف بغرابة ؟ »

إزداد وجهها احمرارًا كأنما يطن لى أنها لا تعنى (الأنيميا) بشكل نهائى .. وقالت :

- « بغرابة ؟ لا .. بل تتصرف بشذوذ إذا أردت الدقة ! »

- « شذوذ ؟ كأن تخنق القطط وتأكل الزهور ؟ »

- « بل أسوأ .. هى لا تفعل شيئًا من أى نوع ! »

بدا لى كل هذا مألوفًا ..

لكنى فى هذه المرة لم أتحمس كثيرًا لزيارة المرأة ..

تناولت الفتاة علبة الحبوب وتقاضيت الثمن فى صمت ..

ليتنى اهتممت بالأمر أكثر !

★ ★ ★

قال (بوريس) وهو يداعب شاربه الكثّ ، ويتلذذ بخشونة لحيته على ظهر يده :

- « دكتور .. ما معنى (أنيميا) ؟ »

قلت له وأنا أتأمل وجهه الناضح بالصحة :

- « معناها : أى شىء سوى ما أنت عليه .. »

ضحك كاشفًا عن أسنانه المغطاة بالتبغ ..

كان راعيًا قوى البنيان له رائحة الضأن ، لكنه كان يروق للنساء باعتباره الرجل الذى هو مائة بالمائة رجل .. إن فى كل رجل جزءًا من الأنوثة ، لهذا يُعتبر (بوريس) حالة فذّة غير معتادة ..

قال لى :

ـ « أنا لست معتلاً .. أريد هذا الدواء لأخى .. »

ـ « هل هو شاحب ؟ »

ـ « طبعًا .. »

ـ « وغريب الأطوار ؟ »

ـ « بحق (مريم) العذراء ! أنت تعرف كل شىء ! »

ناولته علبة من أقراص الحديد .. يبدو أن المخزون لدىّ لن يكفى كل هؤلاء الشاحبين »

ثم إننى غادرت المتجر قاصدًا دار د. (ميخائيل) .

كان النحاسى العجوز هناك عاكفًا على فتح خراج فى قدم فلاحة .. والمرأة تصرخ كأنهم ينتزعون عينها بمطواة غير حادة ..

انتظرت حتى هدأ كل هذا الصراخ ، وانصرفت المرأة وهى تطلق السباب واللعنات على الطب والأطباء ..

قال د.(ميخائيل) وهو يغسل يديه :

ـ « كلهم نفس الشىء .. يجوب الواحد منهم الدنيا بحثًا فسادًا ، ويرتكب كل الموبقات .. ثم يصيبه خراج فى قدمه فيملأ الكون صراخًا ، كأن قدمه هى

ميزان الأكوان وحقيقة الوجود .. وبعد هذا يدفع لى حفنة (لايات) كأنما ينتزعها من قلب أطفاله .. »

ثم تأمل مال المرأة فى الشملزاز .

ـ « إن نقودهم خالية من البركة .. لأنهم يمنحونها مصحوبة باللعنات والدعاء على أطفالى بالموت .. »

قلت له وأنا أجفف العرق الذى غمر عنقى :

ـ « هل تصادفك حالات فقر دم كثيرة هذه الأيام ؟ »

فكر قليلاً .. ثم قال :

ـ « ليس أكثر من المعتاد .. إن طعام هؤلاء الفلاحين لا يغنى ولا ... »

ـ « إذن ترى حالات مثل (مازورسكو) ؟ »

ـ « ليس كثيرًا كما قلت .. »

هنا خطر لى أن أحدًا لا يبلغه ؛ لأن المرضى جميعًا يصرّون على عدم إطلاع الأطباء ..

لقد فعلها (مازورسكو) وهدد امرأته بالتهام حنجرتها ، وهو ما أشكره عليه ما كان من موته اللطيف قبل أن يفعلها ..

لكن الآخرين فعلوا الشىء ذاته على الأرجح ..

عدت أسأل د.(ميخائيل) ـ وأنا واثق أن معلوماته

فى الطب لا تفوق معلومات أى ترزى ـ عن احتمال وجود حالات فقر دم لها شكل وبائى ..

مط شفتيه فى تفكير .. ثم قال :

ـ « لا أدرى .. ربما مع الملاريا .. أو وجود تسمم رصاص .. أو عند وجود مصدر إشعاع نووى .. »

وهز رأسه مستبعدًا :

ـ « لكن لا شىء من هذا فى (هالماجيو) .. »

ـ « ألا ترى أن من واجبك إخطار مكتب الصحة ؟ »

ـ « لا أظن .. »

قالها فى ثبات وعناد ..

ليس من المستحب أن تبلغ السلطات عن وجود متاعب فى نطاق عملك .. لأن أول ما سيحدث هو أن يقصوك عن منصبك ، ولأن بداية الخلاص من المتاعب هى الخلاص منك ..

إن (شاوشيسكو) يحب عمله حقًا ..

★ ★ ★

ـ ٣ ـ

قد يحدث كل شىء فى (رومانيا) ..

صحيح أن (بوكوفينا) لم تظل قط رومانية .. بل هى تتأرجح طيلة الوقت بين (رومانيا) و(المجر) .. لكن قواعد (رومانيا) الصارمة تسرى عليها ..

فى (رومانيا) فقط يمكن أن يكثر الشاحبون ..

فى (رومانيا) فقط يحدث هذا بلا تفسير ..

فى (رومانيا) فقط يبدأ الكلام همسًا ثم بصوت عال ..

الكل يعرف أن شيئًا ليس على ما يرام يحدث ..

لكن ما هو ؟

★ ★ ★

وفى أمسية مقمرة من شهر (يونيو) ؛ أمسية من النوع الذى يخرج فيه العشاق إلى غابة الصنوبر المحيطة بالقرية ؛ أمسية من النوع الذى يندر فيه أن ترى جثثًا مشوهة ..

أمسية كهذه هى التى وجدوا فيها جثة (إيرينا لاسكى) فى الغابة .. كانت عيناها شاخصتين للسماء فى رعب ..

كانت عيناها شاخصتين للسماء فى رعب .. ولم تكن ثمة آثار عنف فى جسدها ..

ولم تكن ثمة آثار عنف فى جسدها ، إذا استثنينا التمزيق فى عنقها والذى حدث بأنياب حادة .. وكان رأى الضابط بليغًا جدًا :

ـ « هذه الأشياء تحدث .. »

ثم أضاف يفسر وجهة نظره :

ـ « إن هذه الذئاب الشهباء لا ترحم .. »

واقتنعنا برأيه .. صحيح أن هذا لم يحدث فى قريتنا قط لكنه ممكن ..

لابد من مرة أولى دائمًا ..

لكن د.(ميخائيل) جاءنى فى المساء وأدخلته زوجتى إلى مكتبى الذى هو غرفة معيشتى كذلك ..

كان القناص العجوز شاحب الوجه ، وجلس يفرك يديه بعض الوقت ويجفف العرق على جبهته .. ثم قال :

ـ « يبدو أنك محق يا (يوليان) .. الأمور على غير ما يُرام فى هذه القرية .. »

قدمت له كأسًا من النبيذ كان بحاجة إليه .. وسألته :

ـ « ما الذى جعلك ترتاب ؟ »

جرع الكأس مرة واحدة ، وقال لاهثًا :

ـ « تلك الفتاة .. (لاسكى) .. لم يكن فى عروقها نقطة دم واحدة ! »

نظرت له فى حيرة ولم أقل شيئاً ..

قال ضاغطاً على حروفه :

ـ « هل تفهم ؟ ولا نقطة دم .. لقد أفرغ الذئب دمها كله .. »

ـ « لكنكم لم تجدوا دماء حول جثتها .. »

ـ « هذا هو ما أرمى إليه .. لقد تم امتصاص دمها كله .. »

ـ « إنك تتحدث عن ... »

وضع الكأس على المنضدة ، وقال :

ـ « نعم .. نحن فى (رومانيا) .. وأنت تعرف ما أريد قوله .. »

ـ « لكن هذا هراء .. أساطير فلاحين .. »

قال فى هدوء :

ـ « لكنها تفسر كل شىء .. وأعتقد أن من واجبنا أن نتخذ الأساليب المعهودة فى الأسطورة : الوتد ـ قطع الرأس .. ليس مفترضاً أن نترك جثتى الفتاة و(مازورسكو) دون احتياطات .. »

ـ « يا للهول ! تريد هذا التمثيل البشع بالجثث ؟ »

أحس أنه قد تمادى قليلاً .. فقال متداركاً :

ـ « ربما حشو الفم بالثوم وقطعتى الفضة على العينين .. يقولون إن هذا أسلوب فعال .. »

ـ « وهل تعتقد أن القوم سيقبلون ؟ .. وهل يقبل القس ؟ »

ـ « أعتقد أنه لا ضرر فى هذا .. »

فى هذه المرة كان دورى كى لا أبدى حماساً ..

ونجحت فى إقناع الطبيب المذعور بتجاهل الأمر ..

★ ★ ★

لكن الأقاويل تتزايد ..

والحكايات المخيفة تكثر ..

ولاحظت أن الجزء الشمالى من القرية هو موطن كل هذه القصص ، وخاصة ما يحيط منها بالكهف القديم الذى كان أهل القرية يتجنبونه بشكل خاص دون سبب واضح ..

ويقع ـ كأن الكهوف ـ عند قاعدة تل حجرى صغير ..

ما هو سرّ هذا الكهف ؟

لقد كان هناك منذ وجدت القرية ، وسيظل بعدها ..

وهو كهف لا يميزه أى شىء خاص .. فهو كهف كأى كهف آخر .. فم فاغر أسود تدخله وتخرج منه الوطاويط ..

وللأمانة لم تكن هناك أية أساطير حول هذا الكهف ، ولم يقل أحد إن الشياطين تكمن فيه أو إن الأطفال الذين يلعبون جواره يختفون .. لا شىء من هذا ..

ولم يكن صالحًا لاختباء الناس أو للهو الأطفال ، لأن رائحة عفنة مقيتة تخرج منه باستمرار كأنه مجرور .. لهذا لم يكن يثير اهتمام أحد .. ومن دخلوه لم يجدوا فيه ما يستحق العودة ..

لكن الأقاويل تكثر ..

وبالتدريج صارت القرية تنقسم إلى قريتين :

القرية الأولى جنوبية تجلس جوار الدفأة ليلاً .. وترتجف .. وتتحدث عن أمور مريبة تحدث فى القرية الثانية ..

القرية الثانية شمالية خاوية على عروشها ملأى بأشخاص أغلقوا أبوابهم على أنفسهم ، وكفوا عن مزاولة أعمالهم ، ولا يعلم سوى الله من أين يطعمون ويشربون .. وكأنهم مصابون بهذا الشحوب ..

صحيح أننا كنا نراهم أحيانًا أو نزورهم ، لكنهم قد فقدوا كل رغبة فى العلاقات الودية معنا ..

كأنهم صاروا آخرين ..

ولم يكن فى كل هذا ما يمكن إخبار السلطات به .. أو إخبار مكتب الصحة .. فمن حق الناس جميعًا ألا يكونوا ودودين ..

لم تحدث حالات وفاة أخرى .. ولم نسمع عن أحداث عنيفة كالتى حدثت مع (مازورسكو) لهذا لم يكن هناك ما يُقال ..

إن الأمر شبيه بأن تبدى رأيك فى رواية لم تقرأ لك .. لكنها جيدة من حيث الأسلوب واللغة والحبكة والشخصيات .. عندها يتقلص وجهك وتقول فى عسر :

ـ « لكن شيئًا ما ليس على ما يرام .. شيئًا ما غير موجود .. هل تفهمون ما أعنيه ؟ »

كان ذلك حين قررت أن أرسل خطابًا إلى مجلة نسائية أعلنت أنها تحقق فى الأمور الغامضة غير السياسية .. إنها مجلة يرأس تحريرها صحفى بدأ يلمع اسمه (جوستاف نيكولسكو) .. فى (رومانيا)

www.RefaatAlmasry.com

فقط ـ على ما أعلم ـ يمكن لذكر أن يرأس تحرير مجلة نسائية .. وهذه من الأعاجيب التى أتحدث عنها ..

لم أقل كثيرًا فى خطابى ، ولم أترك أكثر من اللازم ، كما لم أتوقع لحظة استجابة من المجلة .. بل إننى نسيت الأمر كله ..

حتى فوجئت بزيارة رجلين قادمين من (بوخارست) .. وكان هذا فى منتصف أكتوبر ..

★ ★ ★

ـ ٤ ـ

كانت سيارة (زابارو جيتس) فاخرة جدًا .. خرج منها رجل فى منتصف العمر أنيق جدًا ، فخيم المظهر ، يدخن السيجار ، وقد بدأ الشعر يتساقط عن مقدمة رأسه ، وكان يحمل حقيبة جلدية فاخرة ..

أما الآخر فكان نحيلاً أصلع الرأس ، يشبه القلم الرصاص ذا الممحاة ، لو أن الأقلام الرصاص تضع العوينات ..

قال الرجل الأنيق وهو يصافحنى فى تواضع :

ـ « مرحبًا .. لا بد أنك د.(يوليان بودسكو) .. »

ـ « أنا هو .. »

فالتفت إلى القلم الرصاص ذى الممحاة ليقول بالإنجليزية :

ـ « قلت لك إننى لم أخمن العنوان .. »

هنا فهمت سرّ مظهره الغريب .. إن القلم الرصاص أجنبى .. ولكن من أية جنسية بحق السماء ؟ هاتان العينان الجاحظتان تقولان إنه ليس أسيويًا .. لكن بشرته أقل سوادًا من الأفارقة .. وشعثاء أكثر غلظة من الأوروبيين .. أتراه من المريخ ؟ »

صافحنى الرجلان .. وقال الأول :

ـ « أنا (جوستاف نيكولسكو) .. »

شخصيًا ؟! غريب هذا ! رئيس التحرير أت بنفسه لدراسة الموقف ؟ كنت سأجد الأمر طبيعيًا لو أرسل لى صحفيًا تحت التمرين أو صحفية متحمسة ..

أردف وهو يقدم القلم الرصاص ذا الممحاة لى :

ـ « وهذا هو البروفسور (إسماعيل) من (مصر) .. »

مصرى ؟ غريب .. إنه لا يشبه المصريين كذلك ..

ـ « هل وصلتك برقيتى ؟ »

ـ « للأسف إن خدمة البرق هنا ..... »

ـ « أفهم .. أفهم .. لا عليك .. هل يوجد مكان للإقامة هنا ؟ »

ضربت أخماسًا فى أسداس .. وقلت حائرًا :

ـ « الواقع لا .. إن دارى صالحة على كل حال .. »

تبادل النظرات مع صديقه .. كأنه يقول له (هؤلاء الفلاحون !) ..

لكن صديقه كان يتابع الحديث بتلك العيون الزجاجية المميزة لمن لا يفهم اللغة التى يتم بها الحوار ..

لهذا عاد يترجم له بالإنجليزية ما قيل .. ولم يبد القلم الرصاص سعيدًا بهذا ..

لكنهما جاءا دارى على كل حال .. وهى دار لا بأس بها أعتقد أنها أحسن دار فى القرية ..

تناولنا طعام الغداء ، وعرفتهما زوجتى ، وكنا حريصين على أن يدور الحديث بالإنجليزية حتى يفهمنا الطبيب المصرى الذى عرفت أن له باعًا ما فى علوم الميتافيزيقا .. ويبدو أن له شهرة عالمية ما ..

وحكيت لهما القصة كاملة ..

ثم استرخيت فى مقعدى منتظرًا آراءهما ..

* * *

حكاية الطبيب النحيل

يحكيها هو بنفسه

قال د.(رفعت) :

كان (بودسكو) بدينًا جدًا .. ربما أقرب للبقال الإيطالى كما تراه فى الأفلام .. وبصعوبة يمكنك أن ترى عينًا أو اثنتين ، أو فمًا يتحرك وسط طبقات الشحم والعرق التى تغلفه .. كأنما عيناه وفمه ثقوب فى كتلة من الزبد .. إنه المعجزة الحية فى البقاء حيًا برغم كل هذا الدهن ..

كان يتكلم بانجليزية رديئة ممزوجة بالرومانية .. لكن كلامه كان مفهومًا .. وإن كنت أتوقع فى كل ثانية أن يسقط ميتًا ..

ولما حكى ما أثار ريبته فى قريته هذه .. ثم طلب منا الرأى ..

قلت فى كياسة :

ـ « لا يمكن إبداء الرأى مالم نر أحد هؤلاء الشاحبين .. »

قال وهو يهز رأسه فى إصرار :

ـ « مستحيل .. إنهم لا يقابلون أحدًا .. »

- « تعنى أنهم لا يتسوقون ، ولا يأتون لشراء (الأسبرين) منك ؟ »

- « إن لهم مجتمعهم الخاص كما قلت لك .. »

تبادلت و (جوستاف) النظرات .. وقلت :

- « كأنه دين جديد .. دين ينفصل أتباعه عن المجتمع .. »

- « دين الشاحبين إذا راق لك التعبير .. »

هنا قال (جوستاف) وهو يشعل سيجاره :

- « دكتور (بودسكو) .. نحن قوم عمليون نرغب الانتهاء من هذه القضية سريعًا .. لهذا يجب أن نرتب أمورنا على أساسين : الأول هو زيارة ذلك الجزء المعزول من القرية .. الثانى هو رؤية جثث من لقوا حتفهم وترتيب تشريحها تحت مظلة علمية أكثر كفاءة .. »

قال (بودسكو) بصوت كالفحيح :

- « لن ترى أحدًا على الإطلاق .. كلهم فى بيوتهم ولا يخرجون .. فقط حين يجىء المساء تسمع ضوضاء قادمة من هناك .. وبالطبع يخشى الجميع هاهنا تبين الأمر .. إن البقاء فى الدار ليلاً جوار النار ليس فكرة رديئة جدًا كما ترون .. »

فتح (جوستاف) حقيبته الجلدية الأنيقة ، وأخرج كاميرا صغيرة ثم أعلن أنه يريد البدء بالتقاط صورتين للصيدلى ..

ابتسم الرجل ابتسامة بلهاء .. فهو ككل شخص آخر يسره أن يظهر وجهه البدين فى الصحف ، ولعل الحظ يسعده فيراه (شاوشيسكو) ..

قال (جوستاف) بعد ما انتهى :

- « هل نذهب الآن لرؤية القطاع الشمالى من القرية ؟ »

نهض الصيدلى معلنًا أنه موافق .. فلا يوجد ما يخشاه هناك فى فترة الصباح والظهيرة ..

ونهضت أنا شاعرًا بأنه من السخف أن أخاف شيئًا لا يخافه هذا الصيدلى المذعور كأرنب ..

★ ★ ★

راحت السيارة تشق شوارع (هالماجيو) الضيقة المرصوفة بالحجارة .. شمس العصر تغمر كل شىء بقيظها الذى يداعب فى عينيك رغبة القيلولة .. والحر شديد برغم أنه أكتوبر ..

الديار كلها مغلقة ولا أحد بالخارج .. لا طفل يلهو ..

لا كلب يبحث بأنفه فى القمامة .. لا عجوز ينتظر فى متجره مشتريًا لا يجىء ..

الحق أنها كانت قرية الأشباح ..

راح (جوستاف) يجوب الطرق بسيارته بسرعة جنونية .. يخرج من هذا إلى ذاك ، ويعود من ذاك إلى هذا ..

لا شىء .. خواء ..

وأخيرًا رأى فتحة الكهف الغائرة إياها ، عند قاعدة تلّ متوسط الارتفاع .. وكان من الطبيعى أن يتوقف بالسيارة هناك ..

كانت الأرض منحدرة للوراء فجذب فرملة اليد محدثًا صوت (كريك ك ك !) الذى بدا غريبًا وسط هذا السكون ..

ورحنا نرمق الكهف فى فضول ..

كان هناك حبل غليظ يمتد بالعرض عبر فتحته ، فى محاولة بلا جدوى لمنع الناس من الدخول ..

وعلى جانبى الفتحة كانت هناك كتابات بالطبشور ، وقلوب متشابكة .. إلى آخر هذا الهراء ..

تساءل (جوستاف) :

كان هناك حبل غليظ يمتد بالعرض عبر فتحته ، فى محاولة بلا جدوى لمنع الناس من الدخول ..

ـ « ما هذا الكهف ؟ »

قال الصيدلي مفسرًا كل شيء :

ـ « هذا كهف .. »

ـ « أعلم .. لكن ماذا تعرف عنه ؟ »

قلت أنا في ملل من اعتاد هذه الأمور :

ـ « القصة المعروفة .. ثمة شيء ما يعيش بداخله .. لهذا يهاب الناس الدنو منه ، ويرسمون علامة الصليب كلما رأوه .. والسر وراء ما يحدث في القرية موجود بين هذه الأحجار .. »

هز الصيدلي رأسه اليمين عدة مرات ، وقال :

ـ « بالعكس .. لا توجد خرافات من أي نوع تحيط بهذا الكهف .. »

كانت الرائحة الخارجة من الكهف عطنة جدًا ، وأبدى (جوستاف) ملاحظة بهذا المعنى .. فقال الصيدلي :

ـ « هذا حق .. وهو سبب وجيه ، ينفر الشباب من الدخول فيه .. إن الوطاويط لا تجيد أعمال النظافة كما هو واضح .. »

قلت :

ـ « إنها ليست رائحة كريهة فحسب .. بل هي رائحة شيطانية .. »

ثم نظرت إلى (جوستاف) متسائلاً :

ـ « من الواضح أننا سندخل .. هل تفعل ذلك الآن ؟ »

ـ « لا بحق السماء .. لا بد من إعدادات .. لا بد من مسدسات وحبال وكشاف .. أنت تعرف هذه الكهوف .. »

ـ « إذن ماذا سنفعل الآن ؟ »

ـ « نجرب قرع الأبواب .. »

قالها وهو يغادر سيارته ..

* * *

قرعنا الباب عدة مرات لكن أحدًا لم يرد ..

على حين وقفت أنا على بعد خطوات أرمق نافذة الطابق الأول .. قد لا يفتح أحد الباب ، لكنه حتمًا سيتلصص علينا من عل ..

وكنت محقًا .. فقد رأيت وجه امرأة عجوز ذات شعر أشيب ترمقني من وراء زجاج النافذة .. ولوهلة التقت عينانا ، ثم رأيتها تغيب داخل الحجرة المظلمة ..

عاد (جوستاف) يضرب الباب مرارًا .. ثم إنه سأل الصيدلي :

ـ « منزل من هذا ؟ »

ـ « منزل (ماريا كالمسكا) .. أم الفتاة التي تقيت حتفها .. »

ـ « إذن دعنا نجرب بابًا آخر .. »

واتجهنا في صمت ـ وشمس العصر تحرق عيوننا ، ولا شيء سوى صوت لهاثنا ـ إلى باب مجاور .. فواصلنا قرع الباب ..

قال الصيدلي باسمًا :

ـ « لا جدوى هناك .. أنا فعلت هذا قبلك مرارًا .. »

هتف (جوستاف) في جلون :

ـ « لكن لا بد من وسيلة لإرغامهم على فتح الباب .. قوة من الشرطة على سبيل المثال أو ..... »

ـ « لا يوجد خطأ قانوني في أن يأبى المرء فتح بابه .. »

لكن ـ قبل أن يرد (جوستاف) ـ كان الباب قد انفتح ..

وسمعنا من يدعونا إلى الدخول ..

★ ★ ★

ـ ٢ ـ

كانت الرائحة العطنة تزكم أنوفنا .. لكننا دخلنا ..

وفي الداخل كان الظلام دامسًا ..

احتجنا إلى بعض الوقت حتى تتكيف شبكيات عيوننا ، وحتى تتخلص من مئات الشموس الملونة التي راحت تطبعها على كل شيء ..

أخيرًا رأينا أسرة من ثلاثة أفراد تجلس على منضدة في الظلام ، وكان هناك شبح طويل القامة يعود ليتخذ لنفسه مقعدًا .. فعلمت أن هذا هو من فتح لنا الباب ..

ـ « ماذا تبغي يا (بولبان) ؟ »

قالها الشبح الطويل بصوت مبحوح .. طبعًا لم أفهم ما قال ، لكن (جوستاف) هو من ترجم لي الحوار بعد ذلك ..

كانوا في الظلام فلم أستطع رؤية وجوههم .. لكني لم أحبذ كثيرًا تلك الظلال المميزة لهم .. كما أنني لم أحبذ تلك الصوت المتحشرج ..

سأنقل لك المحادثة كما ترجمها لى (جوستاف) فيما بعد ..

قال (يوليان) :

ـ « (ميخائيل) .. ماذا دهاكم جميعا ؟ هل أصابكم الجنون ؟ »

قال (ميخائيل) الذى عرفت أنه الشيخ :

ـ « لم يحدث ما يدعو لحيرتك يا صديقى .. أنت تراءا بخير .. »

ـ « بل صرتم فى عالم آخر غير عالمنا .. »

ـ « ليس حباً الانعزال جريمة .. »

ـ « ربما كان مرضاً .. »

قال (ميخائيل) وهو ينهض ..

ـ « أنا أحبك أيا (يوليان) .. ولهذا أنصحك كل النصح ألا تفتش عن الحقيقة كثيراً .. فالحقيقة أكبر منا جميعاً .. وأنصحك كذلك ألا تأتى ها هنا ليلاً .. »

تلفت (يوليان) حوله بحثاً عن شخص غير موجود .. وتساءل :

ـ « أين (إيزيبيا) ؟ »

قال (ميخائيل) بنفس الصوت :

ـ « (إيزيبيا) ماتت يا (يوليان) .. منذ شهر .. »

كان هذا حين علمنا ـ فيما بعد ـ أن (إيزيبيا) هى زوجة الرجل .. ويبدو لسبب ما أن الخبر كان غير معقول ، لأن (يوليان) راح يردد فى هستيريا وذهول :

ـ « ماتت ! (إيزيبيا) ماتت ؟ وكيف لم نعلم ؟ »

ـ « إن الموت يحدث .. ولا يجدى إخفاؤه أو إعلانه .. »

ـ « وأين دفنتموها إن لم يكن فى الكنيسة ؟ »

ـ « قلت لك يا (يوليان) إننا لم نعد ننتمى لكم .. ليس مأكلنا مأكلكم ولا مشربنا مشربكم ، ولا بيتنا بيتكم ، ولا قبورنا قبوركم ! »

هنا تدخل (جوستاف) فى هذه المحادثة الرومانسية الشائقة ، التى لا أفهم منها حرفاً سوى الإيماءات والنظرات ..

قال (جوستاف) :

ـ « ليس هذا سهلاً فى دولة مثل (رومانيا) .. لا أحد يستطيع أن ينفصل عن المجتمع مكوناً مجتمعاً جديداً .. إن مخالب السلطة فى كل مكان وداخل كل

شق فى الصخور .. حتى الجثث فى قبورها خاضعة للرفيق (شاوشسكو) .. »

سمعت لفتة (شاوشسكو) فهمت أن فى الأمر تهديدًا ما ..

قال (ميخائيل) :

ـ « حتى رفيقك (شاوشسكو) لن يستطيع الوصول إلينا الآن .. فنحن فى عالم آخر بعيد عن كل ما تخافونه .. »

ثم أشار إلى الباب بإشارة صامتة ..

قال (يوليان) وهو ينهض :

ـ « أخشى يا (ميخائيل) أننا مضطرون لإبلاغ السلطات فى (بوكوفينا) .. وليس هذا ضد حق الجيرة بل هو معه .. »

وفى صمت مشينا إلى الباب وسط الظلام ..

صوت أخشاب الأرضية بلن تحت أقدامنا ..

ولحسن الحظ لم يفعل أحدهم ما كنت أخشى أن يفعلوه .

مثل ماذا ؟

مثل قتلنا طبعًا !

★ ★ ★

فى دار الصيدلى ، تناولنا طعام العشاء ..

كانت على الحائط ساعة عتيقة من العصر الباليوزى ، من التى تجلب الأشباح وتوشك دقاتها على إيقاظ الموتى .. بينما كانت هناك فوق رف المدفأة أيقونة للسيدة العذراء .. وصليب كبير جدًا .. وبضع صور للمرحومة خالة والدته ..

وكانت الزوجة بدينة جدًا كزوجها .. لكنها صموت تبتسم فى تحفظ طيلة الوقت .. وكان طهيها رديئًا على عكس كل البدينين الذين يجيدون الطهى غالبًا ..

إن الطعام الرومانى جيد وقريب جدًا من طعامنا .. الأمر الذى يؤكد لك أن طهيها كان سيئًا حقًا ..

قال (جوستاف) وهو يجرع ما بقى فى كأسه :

ـ « بعد العشاء سنعود إلى الشاحبين ! »

كان هذا كافيًا كى يتوقف الطعام فى حلقى .. ورحت أسعل فناولنى لكمة بين لوحىّ كتفى وكوبًا من الماء .. ثم قال :

ـ « هذا هو الحل الوحيد كى نكمل مهمتنا التعسة .. نحن نعرف أن شيئًا مريبًا يحدث ليلاً .. ما هو ؟ »

قال الصيدلى وهو ينزع المنشفة من عنقه :

ـ « في هذه الحالة أنا لن ألحق بكم .. آسف .. »

ـ « هذا حقك يا صديقي .. لكننا في حاجة إلى بعض الأشياء .. »

ثم راح يعدّ على أصابع يديه :

ـ « أولاً : نحتاج إلى كشاف .. ثانيًا : نحتاج إلى حبل .. ثالثًا ..... »

هتف الصيدلي غير مصدق :

ـ « أنت لن تدخل الكهف الآن ! »

ـ « لم لا ؟ سنحاول لو وجدنا فرصة ما .. ثالثًا نحتاج إلى سلاح .. إن معي مسدسي .. »

قلت أنا دون حماس :

ـ « مسدسي معي أيضًا .. »

ـ « هذا رائع .. هيا بنا .. »

طبعًا حاول الصيدلي إقناعنا لكننا ـ أعني (جوستاف) ـ لم نعد على استعداد للين .. ولكم تمنيت لو أن هذا الرجل يملك القدرة على الإقناع !

غريب أمر (جوستاف) !

لقد عرفته دومًا شخصية ذكية ، لكنها أقرب إلى الخفة والافتقار إلى الصرامة .. لكن ترقّيه في المناصب

والسن جعله شخصية قاسية تتعذر مقاومتها .. وصار أكثر شجاعة وحزمًا ..

إن الشخصية لكيان غير مفهوم .. هل حقًا ذلك القائد الهمام هو ذات المتردد يطيء الفهم الذي عاشت معه قصة المذعوب إياها ؟

وجلب لنا الصيدلي ما طلبنا ، وتمنى لنا حظًا سعيدًا ، ورجانا ألا نتهور أكثر من اللازم .. فلا أحد يعرف على وجه اليقين ما يمكن أن نجده .. ولم تكن لدي أية نية للتهور على كل حال ..

وفي العاشرة مساءً انطلقنا إلى الجزء المعزول ..

★ ★ ★

ـ ٣ ـ

ـ « الآن لنرجّل .. »

قالها (جوستاف) وهو يوقف محرك السيارة ..

لم تكن لدىّ نيةٌ من أى نوع لمغادرة السيارة .. فهى تبدو كبيت آمن داخل ، والليل قد صار أبرد .. والظلام صار أكثف ..

ـ « هل لا بد من تركها ؟ »

قال فى غيظ :

ـ « هل تمزح ؟ هدير محرك سيارة وكشافاتها وسط هذا السكون والظلام ؟ إن الموتى سيغادرون قبورهم مذعورين »

وغادرنا السيارة ؛ بعد ما أوقفها (جوستاف) فى زقاق مظلم من أزقة القرية المتشابهة كلها والمرصوفة ـ دائمًا ـ بحجر الإسكافى ..

ـ « هل الحبل معك ؟ »

ـ « وهل الكشاف معك ؟ »

ـ « إذن نحن مستعدّان .. »

وانسللنا صامتين كاللصوص عبر الأزقة ، لا نهتدى إلا بضوء خافت من آن لآخر لمصباح يباهت فى طريقنا ..

لكن صوت الصخب كان يخبرنا أننا لم نضلّ الطريق ..

★ ★ ★

أى مشهد رهيب رأيناه !

كنا ندنو من النيران الملتهبة التى أشعلوها فى وسط الشارع .. والتى تعلو إلى عنان السماء ، والتى يمارسون حولها نشاطًا لا أدرى كنهه .. يتخلله صخب غير معتاد ..

وهمس لى (جوستاف) :

ـ « لا تدنُ .. تعال نتوارَ .. »

ووجدنا وراءنا بيتًا بابه موارب .. واتضح أن صاحبه قد غادره متعجلاً كى يلحق بهذا الاحتفال ..

ولم نتردد .. دخلنا الباب إلى الداخل المظلم عطن الرائحة .. أين شممت هذه الرائحة من قبل ؟ آه .. فى الكهف طبعًا ..

كانت هناك درجات سلم متآكلة تقود إلى طابق ثان .. ومن هناك تغدو الرؤية أفضل ..

صعدنا فى الدرج الذى لم يكن يحدث صريرًا ..
ومن النافذة كان وهج النار يفسر القاعة بضوء ذهبى وفراق ؛ يسمح لألف خاطرة مروعة بأن تولد ..
نظرت إلى الوراء فى ذعر وتحسست مسدسى ..
لا أحب كثيرًا أن أجد صاحب الدار يقف وراءنا فجأة ..
متى سيعود ؟ هل سنشعر به ؟
ثم كتمت خواطرى ودنوت من النافذة ، ورحت و(جوستاف) نرمق المشهد راكعين على ركبتينا ..
كان المشهد عامة يوحى بطقوس ما ..
للدقة أكثر كان يوحى بطقوس الخصوبة كالتى يذكرها من رأوا فيلم (رجل الخيزران) .. هذا الجو الهمجى الوثنى الذى يجمد الدم فى العروق ..
كانوا يدورون دون كلال حول النار المشتعلة فى وسط الشارع .. نار مضرمة فى ما تيسر لهم من أخشاب وإطارات قديمة ..
رجال ونساء كلهم شاحبو الوجوه إلى حد يذكرك بحرباء مذعورة .. وقد اكتسبت وجوههم المتألقة فى النيران طابعًا مرعبًا يوشك أن يكون سيتمائيًا ..
وفى السماء تردّدت الأهازيج التى يترنمون بها ..

ـ « ماذا يقولون يا (جوستاف) ؟ »
ـ « لا أفهم حرفًا .. »
لا يفهم حرفًا مما يغنون .. لكنهم يغنونه بحماس ..
وأدركت من موقعى أن ثمة ما ليس على ما يُرام فى مظهرهم ..
الشحوب ؟ لا .. لا .. شىء آخر ..
من هذه المسافة البعيدة وبرغم وهن بصرى أرى شيئًا ما خطأ ..
إن وجوههم متآكلة مهترئة .. وأنوف بعضهم بدأت تتساقط .. هل الجذام ؟ لا .. لا يبدو الجذام هكذا ..
وسرت قشعريرة فى عمودى الفقرى ..
إن هؤلاء القوم يتحولون إلى ممسوخ ..

★ ★ ★

وتذكّرت مشهدًا مماثلاً لهذا فى (جامايكا) .. منذ أعوام طويلة .. سحرة (الفودو) كانوا ملتفين حول شاب ، يقومون بتحويله إلى (زومبى) .. (كوديكا) .. (كوديكا) ..
ربّاه ! إننى أسترجع ذات الشعور المقيت بكل تفاصيله ..

ويسقط القلم من يدى ..

★ ★ ★

ولم يكن الشاب الذى يلتفون حوله مقيدًا إلى عمود هذه المرة .. كان معلقًا من قدميه كالذبيحة .. وأدركت أنه حى .. وأنه مذعور .. وأنه يتلوى محاولاً الفرار حاسبًا - ذلك الأحمق - أن مجرد الإصرار كاف لقطع حبل غليظ كهذا ..

همس (جوستاف) :

- « بحق السماء ! من هذا ؟ »

- « إنه القربان الدموى لهذا الحفل الوثنى .. هذا واضح .. »

آه لو لم يكن ذلك الشعور الجهنمى بأن هناك من يراقبنى !

★ ★ ★

هو - الذى يمشى فى الظلال - يراك ويسمعك الآن ..

★ ★ ★

هو - الذى يمشى فى الظلال - يعرف أنك هنا ..

★ ★ ★

هو - الذى يمشى فى الظلال - لا يعرف معنى الأعذار ..

★ ★ ★

كانوا يتصرفون فى سلامة وبسر كأنهم فعلوا ذات الشىء مرارًا ..

أولاً : دار عليهم من يحمل صينية عليها عدد كبير من الكئوس الزجاجية الفارغة .. فأخذ كل واحد كأسًا ..

ثانيًا : دنت امرأة عجوز شعرها أشيب - لا أستبعد أنها من كان يرمقنا من النافذة - حاملة مدية صغيرة ..

ثالثًا : بالمدية أحدثت جرحًا فى عنق الشاب المعلق ..

رابعًا : راح كل منهم يدنو بالكأس ليغمسه من الدم المتساقط .. كانوا يقومون بهذا وهم يتحركون على شكل دائرة .. كل يملأ كأسه مرة .. ويجرعه مرة واحدة .. ثم يتحرك فى الدائرة بينما يتلوه آخر ..

إن الإنسان يحوى خمسة لترات من الدم .. والكأس يسع مائة سنتيمتر مكعب .. أى أن هناك دمًا يكفى لملء خمسين كأسًا .. ولما كان عددهم يقرب من الثلاثين ؛ فلقد قدرت أن تنشيهم - من سعداء الحظ - سيملئون الكأس مرتين ..

خمسة صغيرة كانت نتيجتها أننى تحسست جيبى ، حتى وجدت زجاجة أقراص (النيتروجلسرين) قذفت واحدًا تحت لسانى ..

دنت امراة عجوز شعرها اشيب - لا استبعد انها من كان يرمقنا من النافذة - حاملة مدية صغيرة ..

اما (جوستاف) فقد تصلب كتمثال (لياح حتب) .. لحظات ثم سمعت لـ (نوع) المميزة للسائقة .. بعض الناس لا يملكون قلوبا واهنة ، لكن لهم معدة اوهن ..

وحين استعاد قدرته على الكلام هتف :

- « (رفعت) ! إنهم غيلان ! »

★ ★ ★

ـ ٤ ـ

هو ـ الذى يمشى فى الظلال ـ سيعود وينتصر ..

* * *

لماذا يفعلون ذلك ؟

إن كثيرين يصابون بفقر الدم .. لكن شرب الدم لم يكن يومًا من الأساليب المحببة لعلاج هذا المرض ..

إنه احتفال قائم على تصفية دماء هذا الشاب ثم شربها .. وهو ـ بحق ـ أسلوب غير معتاد .. لعل امتصاص الدماء أكثر احترامًا واتفاقًا مع التقاليد ..

أما ما حدث بعد ذلك فكان غير معتاد بدوره ..

لقد أسكرتهم الدماء ! تحولوا إلى مجموعة من السكارى المعتوهين يتطوحون يمينًا ويسارًا ويحدثون صخبًا .. وبعضهم راح يرقص رقصة خرقاء غير متسقة .. أو يقوم بحركات بهلوانية لا معنى لها ..

قال (جوستاف) غير مصدق :

ـ « بل هم مجانين كذلك ! »

ـ « أظن أن هذا أمر مفروغ منه .. »

ومن جديد عاودنى الشعور السابق بأننى مُراقب ..

نظرت إلى الوراء .. لم تكن الحجرة مظلمة تمامًا بفضل ضوء اللهب .. ولم يكن هناك ما يخيف سوى قطع الأثاث القديمة ..

لكنى شعرت بتلك الغريزة الملحة تقول لى : اهرب ! اهرب ، كأن الجحيم يطاردك !

قلت لها : كفى سخفًا .. فأنت تجعلين منى جبانًا ..

قالت فى نفاد صبر : وهل كذبت عليك من قبل ؟!

الحق أن لا .. وهكذا قلت لـ (جوستاف) :

ـ « أعتقد أن الوقت قد حان للفرار .. »

ـ « لكننا لم نفهم شيئًا ولم ندخل الكهف .. »

ـ « لا أظن أنهم سيعطوننا فرصة لمحاولة هذا .. لو أردنا العودة فليكن هذا صباحًا ومع آخرين .. »

فكر قليلاً ثم رأى أن الصواب هو ما قلته .. قال وهو يبتعد عن النافذة :

ـ « لا بأس .. من يدرى ؟ لربما عدنا بقوات من الجيش .. فهذا المكان يستحق الحرق بقنبلة نرية .. »

ولاهثين كمكلبين فى يوم حار ؛ رحنا نهبط فى الدرج قاصدين الباب الخارجى .. ومدّ (جوستاف) يده ليفتحه ..

لقد تأخرنا أكثر من اللازم ..
ليتنا فطناها منذ دقيقتين أو أكثر ..
كان صاحب الدار عائداً إلى داره لغرض ما ..
وحين فتح الباب ورأى وجهينا اتسعت عيناه ذهولاً ..
وسمعته يقول شيئاً ما بصوت كالفحيح ..

★ ★ ★

كانت ملامحه واضحة بصعوبة في الضوء الخافت ، لكني - بطريقة ما - كنت أرى عينيه تلمعان في الظلام كجمرتين ..
وأدركت - والقشعريرة تغمر جسدي - أن هذا المخلوق يرى في الظلام بشكل جيد جداً ..
ولم يكن أمامنا وقت للتردد أو البحث عن حل أمثل .. حياتنا تتوقف على الخف ولا شيء سواه ..
وهكذا - في اللحظة ذاتها - ركلت الرجل في أسفل بطنه .. بينما هوى (جوستاف) بيده المتشابكتين على مؤخرة رأسه .. وحين تداعى الرجل للأرض ركله (جوستاف) بين أضلعه بحذائه الفاخر الغليظ ..
مددت يدي إلى قداحتي فأشعلتها وقربتها من وجه الرجل ، لأتبين ملامحه حيث تمدد على الأرض فاقد الوعي ..
وهمست :
- « ربّاه ! إنه لا ينتمي للبشر ! »
وهمس (جوستاف) :

ـ « مسخ ! »

كانت أذناه متآكلتين وأنفه مجدوعا .. أما بشرته الشاحبة كهذه الورقة فكانت ملآى بالقروح .. ومن بين شفتيه سال خيط من الدماء .. ليست دماءه طبعًا ..

لكنه ـ ولله الحمد ـ لم يكن ذا أنياب ..

ـ « هل هو مجذوم ؟ »

سألني (جوستاف) وهو يرتجف ..

قلت وأنا أطفئ نور القداحة كي يذهب هذا المسخ بعيدًا :

ـ « لقد رأيت مجذومين كثيرين في حياتي .. ويمكنني أن أؤكد أن هذا لا يمت لهم بصلة .. »

وفتحت الباب أكثر كي يتيح لنا الخروج ، ورفعت قدمي لأعبر فوق الجثة .. حين ... إن هذه الأشياء تحدث دائمًا في هذه المواقف ..

لقد شعرت بيدين من حديد تتشبثان بكاحلي ..

ثم تحررت يد منهما كي تمسك بكاحل (جوستاف) .

لقد أفاقت ضحيتنا وتشبثت بساقينا كمصايد الدببة ..

ومرعان ما تعثرتُ وسقطتُ على الأرض ، بينما راح (جوستاف) يواصل الركل محاولاً ألا يفقد توازنه ..

لكن الرجل الساقط على الأرض كان قويًا أو منحه الغضب قوة .. وقد راح يمسك بنا وهو يطلق صرخات عاتية كأنه عربة إسعاف مصابة بسرطان الحنجرة ..

اخرس .. عليك اللعنة ! اخرس !

لو كنا رجلين سوانا أنا و (جوستاف) ـ طبيب وصحافي ـ لعرفنا كيف يخرسان هذا المستغيث ..

لكننا لم نجد حلاً أو منعنا الرعب من إيجاد حل ..

وإن هي إلا لحظات حتى انفتح الباب تمامًا ..

ولمحنا في الظلام ـ لأن اللهب كان وراءهم ـ عشرة وجوه على الأقل من وجوه هؤلاء القوم ..

كان بعضهم يحمل العصا .. وبعضهم يلوح بسكين هائلة .. واثنان كانا يمسكان بمنجل من هذا الذي لا تراه إلا في يد الموت على ورقة (التاروت) إياها ..

مدّ (جوستاف) يده إلى مسدسه وشهره في وجوههم وهو يرطن بالرومانية مهددًا بالتأكيد ..

قلت له وأنا أنهض من عثرتي ، وقد تراخت قبضة الرجل :

ـ « لا يا (جوستاف) .. لا ! لن تقتل منهم سوى

اثنين أو ثلاثة ثم يمزقنا الباقون إربا .. لا يبدو أنهم يخافون شيئا .. »

قال أحدهم شيئا ما ، ثم دخل إلى المنزل المظلم .. وكما توقعت تماما انتزع المسدس من يد (جوستاف) دون أن يتردد لحظة ..

لا أدرى متى ولا كيف أخرجونا من المنزل ..

كانوا يهددوننا بأسلحتهم النارية ، وهم يقتادوننا إلى النيران التى تزداد تأججا ..

ووجدت نفسى واقفا على بعد أمتار من الجثة المتدلية ، التى كفت عن الاحتضار منذ دقائق ..

كنت أتمنى أن أمتع القارئ أكثر ، فأقول إنهم مزقونا إربا أو ألقوا بنا فى النار .. لكنى مازلت حيا أحكى هذه الأسطر .. إذن لم أمت لكنى دنوت من ذلك جدا للأسف ..

وكما أقول دائما فى قصصى : ليس المهم ما حدث .. المهم كيف حدث ؟

ماذا كنت أقول الآن ؟

آه ! وجدنا نفسينا نقف جوار النيران ، بينما هؤلاء القوم يحيطون بنا .. وفى ضوء اللهب أدركت أن ظاهرة التآكل عامة ..

إن قرية (هالماجيو) تمر بأشنع تحول مسخى يمكن وصفه ..

ونظرت إلى (جوستاف) الذى وقف محتفظا بوقاره .. وقد راح يتكلم معهم بالرومانية .. على الأقل هم لم يفقدوا فهمهم للغة بعد ..

إن لغة الإيماءات والنظرات تفسر ستين بالمائة من هذه المحاورة :

ـ « من أنتما أيها الدخيلان ؟ كيف تعديتما على حظائر الدين ؟

ـ أنا صحافى من (بوخارست) ولى اتصالات مهمة .. وقلوا أن (السكيوريتاتيا) لن تتركنى دون بحث محموم عنى ..

ـ هاها ! لا أحد يعرف أنكما هنا .. ونحن لم نعد تحت سيطرة أحد ..

ثم تدخل رجل تعرفت صوته المبحوح دون جهد .. إنه (ميخائيل) زوج (إيزبيا) الذى كنا عنده صباحا ..

لغة الإيماءات والنظرات : ألم أقل لكم أن تتركونا وشأننا ؟

ـ هل تعرفهما يا (ميخائيل) ؟

- إنهما كانا في القرية صباحًا مع الصيدلي (بوليان) ..

هنا التفت لي (جوستاف) وبدأ يترجم ما قيل .. قلت له في نفاد صبر :

- « دعك من هذا .. كل هذا مفهوم .. ماذا ينوون عمله معنا ؟ »

- « لم يتفقوا بعد .. ظننتك فهمت هذا أيضًا .. »

ثم همس في خطورة :

- « إنهم لا ينادون بعضهم بالأسماء العادية .. بل يستعملون ألفاظًا ونعوتًا مثل (شيطان الظلام) و(زهرة القبور) و(نهر النار) .. بل إنهم يسمون القرية كلها باسم (إفرنوس) »

(إفرنوس) هو الاسم اللاتيني للجحيم .. وهو مألوف لمن قرأ (الكوميديا الإلهية) للإيطالي (دانتي) ..

كنت المرأة العجوز التي لا أستبعد أن تكون لعبت السماكة يومًا مع (خلرع) .. وكانت تحمل في يدها كتابًا سميكًا مهترئ الصفحات لكن له هيبة كتب الصلوات ، وعلى غلافة لمحت الرمز العتيد ، الصليب المقلوب .. إذن فالأمر هكذا ..

ورأيتها ترفع يدها اليسرى التي تشتق جلدها وتأكل .. قبضة مضمومة يبرز أول وآخر إصبع منها .. وهو الرمز العتيد الآخر الذي أعود بالله من تفسيره .. قبضة الإلحاد ..

كانت تتكلم وتتكلم بصوت رفيع جهوري .. وأدركت أنها الكاهنة العظمى في هذا المجتمع الغريب ..

قال (جوستاف) متابعًا كلامها جملة فجملة :

- « إنها تقول إننا مرغمان على الانضمام إلى هذا المجتمع ، والتخلص من خطايانا للأبد .. إنها تسمي نفسها (الروح الكبرى) ، وتقول إننا سنغدو أخوين من إخوة الدم في هذا الجمع .. لا توجد فرصة للخيار ؛ لأن هناك سبيلاً واحدًا هو الموت .. تقول إن (المعلم الأكبر) قادم عن قريب .. عندها يندم الخطاة الذين لم يقاوموا كبرياءهم .. والذين تقلصت وجوههم اشمئزازًا عندما لمس كأس الدم شفاههم ، والذين أفرغوا أمعاءهم عندما طلب منهم التهام القربان ! »

واضح أن (جوستاف) مترجم ممتاز ..

واضح أنه لم يختلق أية عبارة من خياله ..

ورأيتها ترفع يدها اليسرى التى تطبق جلدها وتاكل ..
قبضة مضمومة يبرز أول وآخر إصبع منها ..

تأكدت من هذا حين قدموا لى الكأس المترع بالدم ..
وحين رأيت الدعوة فى عيونهم .. وحين سمعت
(جوستاف) يقول :

ـ « إنهم ينتظرون منك أن تشرب !! »

★ ★ ★

حكاية الروح الكبرى

تحكيها هى نفسها

www.liilas.com/vb3
RAYAHEEN

قالت (ماريا كالسكا) :

لم يعد من حقى أن أسترجع الماضى .. أو أذكر نفسى باسمى القديم قبل أن أنال كهنوت الدم ؛ لكنى مضطرة لذلك ما دمت بصدد سرد القصة منذ بدايتها ..

★ ★ ★

هو - الذى يمشى فى الظلال - يعلم أننى أقول هذا مرغمة ..

هو .. المعلم الأكبر .. خريوانس .. كل هذا يعنى الشىء ذاته .. وهو قد سمح لى بالكلام .. لهذا أتكلم ..

★ ★ ★

قبل الرؤيا كنت أمًا لطفلين ، وأرملة فى الخمسين من عمرى .. صحيح أننى أبدو فى الثمانين لكل من يرانى ، لكن ما ذنبى ؟ لقد تضافرت على شبابى نوائب الزمن وخطوبه ، وتركت كل نائبة جرحًا لا يزول على وجهى .. حتى قيل إن خارطة الطرق فى (رومانيا) مرسومة على ملامحى بدقة مذهلة !

أورثوذكسية متدينة ، تقرأ فى الإنجيل كل ليلة ، وأشعل الشموع فى الكنيسة ، وأبكى أمام تمثال (مريم) العذراء .. كان هذا قبل الرؤيا طبعًا .. وقبل أن يتخذ منى هو ـ الذى يمشى فى الظلال ـ كاهنته العظمى ..

كان لى طفلان جميلان .. (إيرينا) المراهقة الحمقاء ، التى يحلم بها نصف شباب القرية ، وينعتها النصف الآخر .. و(فالنتا) الطفلة التى ستكون (إيرينا) يومًا ما ..

رباه ! يا لها من حياة !

تربية طفلين دون دخل تقريبًا .. الفقر .. الفقر .. كلما ازددت فقرًا ، كلما ازددت الحاحًا ، وازداد وجهى تجعدًا ، وخلا فمى من أية أسنان ..

★ ★ ★

والآن تقف جوار التيران ترمق المتطفلين ..

كانا رجلين من (بوخارست) .. أحدهما تبدو عليه أمارات الثراء والثقة بالنفس .. أما الآخر فهو أوسم مخلوق وقعت عيناى عليه .. إنه نحيل يضع العوينات مما يعطيه سمتًا مهنيًا متحضرًا .. وأصلع الرأس ،

وأنا أحب صلع الرأس فى الرجال لأنه يوحى بالتضج والنظافة ..

لم يعد منى ولا منصبى يسمحان بالوقوع فى الحب .. لكنى لو فعلت لكان هذا المصرى الجميل أول من أختار ..

نعم هو مصرى .. صاحبه قال إنه طبيب مصرى .. وقال عن نفسه إنه صحافى كبير من (بوخارست) ..

لا يهم هذا .. نحن لم نعد ننبهر بالمناصب الدنيوية ..

إنهما سينضمان إلى الشاحبين الآن ما داما قد جاءا .. غير مجبرين ، غير مخدوعين ، غير مغرر بهما ..

« بكامل إرادتهما الحرة جاءا » كما يقول مصاصو الدماء ..

★ ★ ★

هو ـ الذى يمشى فى الظلال ـ اختارنى ذات ليلة ..

★ ★ ★

لم تكن لى أية علاقة بالموضوع حتى شهر (مايو) الماضى ..

كنت أقضى وقتى فى تخليل البصل ، وصنع السلال بغرض بيعها .. كما أننى كنت أخيط ثياب الأعراس مقابل أجر ..

وكانت (إيرينا) تساعدني تارة وتتهرب مني تارة .. من العسير أن تقنع فتاة مراهقة بأن مسئولية البيت تمنعها من المرح ، وزيارة أترابها ، واللعب في المرج وصيد اليعاسيب ، أو قطف الزهور كي تدسها خلف أذنها كما تفعل بنات (هاواي) في الصور ..

الحق أن (إيرينا) كانت بارعة الحسن .. والفتاة المراهقة قد تكون عسيرة في تربيتها ، لكن المراهقة الحسناء مستحيلة ..

كنت بحاجة إلى رجل بجانبي .. رجل له عينان يتبعث الشرر منهما ، وله (شخطة) ترتج لها جدران المنزل وقلب (إيرينا) ..

ولم يكن هناك رجل يصلح سوى (بيلاسكو) ..

(بيلاسكو) جاري الذي توفيت زوجته منذ عام .. وهو مدرس في مدرسة القرية .. أصلع الرأس نحيل .. أي أنه فتى الأحلام .. ومن الطبيعي جداً أن يطلب يدي .. فهو أرمل وأنا أرملة .. وبيتانا متلاصقان .. ولديه ولد ولدي ابنتان ..

لكن الأحمق لم يبد قط أية رغبة للزواج من أي نوع .. فقط كان يتردد على الدار مساء ليجلس ويثرثر ويشرب بعض (الروم) ، ثم يقول :

ـ « إن الحياة تقاسية يا (إيرما كالمسكا) .. كل هذه الوحدة .. »

ويسكب ما بقي من القدح في حلقه .. وينهض ..

فقط لاحظت في الآونة الأخيرة أنه يزداد شحوبًا ..

كان يجيء داري ليلاً .. وفي كل ليلة كان يبدو أقرب إلى لون الليمونة الناضجة أكثر فأكثر ..

سألته في ذات ليلة .. وأنا أرشف من شراب عطر الرائحة أهداه لي :

ـ « هل أنت مريض يا (بيلاسكو) ؟

بدت عليه الحيرة .. ثم سألني عن السبب .. قلت وأنا أعيد الكوب لموضعه :

ـ « يقولون إنك لم تعد تغادر دارك .. لم تعد تغادر غرفتك .. ثم هذا الشحوب .. وهذه الرائحة .. بحق (مريم) العذراء أشعر كأنك تتعفن حيًا ! »

قال وهو يهز رأسه كمن يطرد خاطرة ما :

ـ « لا شيء من هذا يا (إيرما) .. إنها الوحدة لا أكثر .. أحوالي سيئة وأشعر بأنني لست على ما يرام .. أنت تعرفين أن الصحة والنظافة مرادفان للسعادة .. الاكتئاب يجعل المرء شاحبًا قليل الاستحمام .. »

ورأيت الدمع فى عينيه قربت على كتفه ..
كان يرتجف .. ورفع عينيه نحوى .. وهمس :
ـ « هل الفتاتان هنا ؟ »
ـ « هما عند خالتهما هذا المساء .. »
وقبل أن أفهم ما يحدث أشب أسنانه فى ساعدى !
كان هذا آخر ما توقعت .. وأطلقت صرخة هائلة ، لكنه كان قد أطبق على الساعد فى عنف .. ومالت السماء و ...
ملحوظة د.(رفعت) : نظرًا لأننى أكره العنف فقد حذفت وصف هذا المشهد الدموى ـ الذى يستغرق صفحة من حديث المرأة ـ وأكتفى بالقول بأن (بيلاسكو) امتصّ دماء (إيرما) بالكامل .. وأنها فى البداية قاومت بعنف ، ثم لم تعد تجد الأمر سيئًا إلى هذا الحدّ .. كان يقودها إلى نوع من الخدر اللذيذ .. كأنها تخطو إلى النوم بعد يوم من العناء ..
تقول (إيرما كالسكا) :
ـ « حين غبت عن الوعى كان صوت (بيلاسكو) الرخيم يتردّد فى ذهنى ، يقول ضاغطًا على مقاطعه :

ـ « أنت لن تموتى أى (إيرما كالسكا) .. ستعيشين لتكونى من إخوة الدم .. وعندها ستتلقين خطايا الماضى .. »
وحين صحوت من نومى عرفت أننى صرت منهم ..

★ ★ ★

يا للنور ! يا للضوضاء !
أنا لم أعد منكم يا حمقى .. إننى أقرب إلى شاعر مرهف الحس يبغى نظم قصيدة ؛ لكن الغوغاء لا يريدون تركه فى حاله ..
كانوا يقرعون الباب على طيلة اليوم .. يتساءلون .. يضيئون الأنوار .. يتأملون وجهى ..
لكنى كنت أصرخ فيهم غاضبة .. دعونى وشأنى .. أريد الجلوس فى الظلام المقدس حتى يأتى الوعد ..
وكانوا يقدمون لى طعامًا رديئًا جدًا .. لكنى كنت قد وصلت إلى حقيقة لم أسعها قط من قبل : إن لحم القطران وخشاش الأرض ليسا بهذا السوء ..
لم يأت (بيلاسكو) قط ليرانى ..
لكنى كنت أسمع صوته طيلة الوقت فى ذهنى :

ـ « هو ـ الذى يمشى فى الظلال ـ ينتظر .. ينتظر حتى نغدو كثيرين ونسود .. عندئذ نتحرك .. وعندها يغدو المجد لنا .. أما الآن فلنبق حذرين منطوين نتحين الفرص .. »

كانت (إيرينا) تزورنى وتسألنى فى لهفة :

ـ « أماه .. ماذا دهاك ؟ »

لكنى كنت أبعدها عنى فى غلظة ..

وقد جئت لى فى يوم من الأيام علبة من أقراص الحديد ؛ ابتاعتها من الصيدلى المخبول (يوليان) ، لكنى لم أتسمها .. ليس فقر الدم هو ما أعانيه .. إنه الجوع للدم ذاته !

نعم .. كنت ظامئة للدم .. ولم يكن ما ذقته منه كافيًا فى الهوام التى أنجح فى الظفر بها ، ولم أجرؤ قط على أن أطلب من (إيرينا) ذبح خنزير وجلب دمه لى ..

كنت أتعذب .. وأتمزق ، لكنى تحاملت على نفسى أيامًا طويلة ..

وكنت أعرف ما سيحدث .. لهذا أرسلت (فاسنتا)

لتقيم عند خالتها .. وحاولت إقناع (إيرينا) البلهاء لكنها أصرت على أن تظل معى ، وأن تنفق على (اللايات) المعدودة التى حصلت عليها من خالتها ..

وفى النهاية كان الظمأ قد بلغ بى أعتى مبلغ ..

لهذا .. شربت دماء (إيرينا) ..

★ ★ ★

حسن .. ثمة رجل يدعى (ميكيافللى) ـ ويبدو أنه روسى(*) ـ حكى لى القس عنه يومًا ما .. يبدو أنه قال (الغاية تبرر الوسيلة) .. ولم أفهم معنى العبارة لكن القس قال لى إن المقصود بها : لو كانت أهدافك معقولة فمن الممكن أن تفعل أى شىء ..

حسن .. أنا لم أعد أطيق القس ولا الكنيسة .. لكنى أعترف له بأنه ثقفنى كثيرًا .. وكانت هذه العبارة هى التبرير الذى وجدته حين أغشيت أسنانى فى عنق (إيرينا) فى غرفتى المظلمة ..

(*) ميكيافللى إيطالى .. لكننا لا نطالب مصاصة الدماء العجوز بأن تكون مثقفة !

وفى النهاية كان الظمأ قد بلغ بى أعتى مبلغ .. لهذا .. شربت دماء (إيرينا) ..

أنا أتحرك نحو هدف أسمى .. تحول مذهل .. تحول تهون معه التضحيات الصغرى ، وعاطفة مثل عاطفة الأمومة .. وثمة حيوانات تلتهم صغارها حين تجوع .. ما دام ذلك فى اتجاه التقدم الطبيعى ..

لكن (إيرينا) ماتت !

ماتت حقًا ، ولم تمرّ بالغفوة التى مررت أنا بها .. لم تصحُ ثانية حقًا .. وأمضيت ساعات طويلة أصفعها محاولة جعلها تنهض .. ثم سمعت صوته (هو) يقول لى :

ـ « أنت قد تسرعت أيتها الروح الكبرى »

تساءلت فى ذهول وأنا أحتضن طفلتى :

ـ « روح كبرى ؟ من ؟ »

ـ « الروح الكبرى هى أنت .. لن تكون هناك من تدعى (إيرما تالسكا) بعد الآن .. بل أنت كاهنتنا العظمى .. وقد تسرعت كثيرًا .. »

ـ « كـ .. كيف تسرعت ؟ »

ـ « كان عليك أن تحقنيها بالإكسير قبل مصّ دمها .. والآن لم يعد من الممكن أن تعود للحياة أو

تغدو منا .. لا تجزعى ! فقط عليك أن تتخلصى من جثتها .. »

ـ « و .. ولماذا أغدو الكاهنة العظمى ؟ »

ـ « لأنك قمت بالتضحية العظمى .. ابنتك ! »

ـ « و .. مـ .. من أنت ؟ »

ـ « أنا (هو) .. هو الذى يمشى فى الظلال .. »

★ ★ ★

ـ ٢ ـ

لم يكن عسيرًا أن أجرّ جثة (إيرينا) إلى غابة الصنوبر وأتركها هناك .. لحظة ضعف عابرة هزتنى وأنا أتذكر كيف كانت طفلتى تهوى اللعب فى هذه الغابة .. ثم تماسكت وعدت إلى دارى تحت جناح الظلام ..

وحين وجدوها جاءنى المأمور يخبرنى بمأساتى .. كان هذا عند الظهر .. وأنا لا أطيق رؤية ضوء النهار ، لكنى سمعت قرعاتهم على الباب ، وصوت رجاله ينادون اسمى العتيق ..

تحاملت على نفسى وفتحت الباب .. ثم جعلتهم يدخلون إلى الدار المظلمة ، لا يكادون يبصرون بعد ضوء الظهيرة الساطع ..

وسمعت من يقول ملحوظة ما عن رائحة البيت الكريهة .. الروائح ! إنهم ما زالوا يلاحظون الروائح .. أما أنا فأعتقد أن حاسة الشمّ لدىّ لم تعد متعلقة إلا بالدم .. هناك دم أم لا ..

قال المأمور :

ـ « منذ متى اختفت (إيرينا) يا (إيرما) ؟ »

قلت وأنا أقف في الظلام :

ـ « منذ أسبوع أيها (القومسير) .. »

ـ « ولماذا لم تخبرينا ؟ »

ـ « لأنها تشاجرت معي وأعلنت أنها لن تعود .. مسألة عاطفية من مخلفات المراهقة إياها .. ولكن لماذا تسأل ؟ »

تنهد وفي تردد قال :

ـ « لأننا وجدنا جثتها في غابة الصنوبر صباح اليوم ! »

الآن صار عليّ أن أصرخ وأولول ..

أصرخ وأمزق شعري وألطم خدي ..

ياه ! لقد كان كل هذا مملاً .. لكني قمت به باعتباره من ضرورات مهمتي .. ويبدو أن أدائي كان رائعًا لأنهم راحوا يواسونني ويقدمون لي أقداح الماء ..

وكان من السهل بعد هذا أن أتظاهر بأن قدميّ قد شلتا .. كان عليّ أن أفعل هذا إذا أردت ألا أذهب للكنيسة لحضور تأبين (إيرينا) .. الحق أنني لم أعد أحتمل دور العبادة كلها ..

جاءت خالة (إيرينا) كي ترعاني .. وخالة (إيرينا) هي أختي طبعًا .. لكني لم أكف عن اعتبارها امرأة متطفلة ما ..

امرأة عجوز ثقيلة الظل تصرّ على مضايقتي ، وتثرثر طيلة الوقت ، وتسألني عن صحتي مائة مرة في الساعة ..

كنت أعاملها بفظاظة .. لكنها كانت تتمسك بشفقتها طيلة الوقت ، ولا تكف عن الإشفاق عليّ ..

والأسوأ أنها راحت تنظف الدار .. وتصرّ على أن تدخلها الشمس وأن تتخلص من رائحتها التي تقول إنها كريهة ..

حسن .. كان لا بد أن تذهب ..

★ ★ ★

وحين كنت أخلو لنفسي كان (هو) يزورني ليملي عليّ كتابه الخاص به .. كتابه الذي سيقتدي به أتباعه جميعًا ..

وكنت أدوّن كل حرف في ورقة ، حتى اجتمعت لديّ ثلاثمائة ورقة قمت بتجليدها في كتاب ، ورسمت

عليه الصليب .. لكن لا ككل صليب .. بل هو صليب مقلوب .. لا أدرى السبب .. لكنى وجدت نفسى مرغمة على رسمه .. وأطلقت على الكتاب اسم (إفرنوس) ..

تسألون عن محتوى الكتاب ؟

إن هذا يثير الفضول .. لكنى غير مخولة بأن أذكر منه حرفًا لأمثالكم من الخطاة الفانين .. ليس من حق غير الشاحبين أن يعرفوا أسرار (هو) العظمى ..

أكتفى فقط بذكر (الإكسير) .. والذى يصنع من أوراق نبات الـ (وولف بين) .. وهو نبات له باع طويل فى السحر ، ويقول الفلاحون دومًا إن رائحته تخلق المذءوبين ..

يبدو أن كثيرين سواى يعلمون سرّه ، ومن بينهم (بيلاسكو) نفسه .. وهذا الإكسير هو الذى يمنع من تمتص دماؤه من أن يهلك .. لم أكن أعرف شيئًا عن هذا حين مصصت دماء (إيرينا) ..

أحيانًا أشعر براحة لأننى لم أكن أعرف .. فهى على الأقل تنعم براحتها الأبدية الآن فى عناية إله رحيم ..

لو كنت أعرف لصارت مثلى .. خادمة لـ (هو) .. وأحيانًا أندم .. فقد فقدت مجتمعًا فردًا .. وفردًا مهمًا ..

المهم أننى تحايلت على خالة (إيرينا) حتى سقيتها كأسًا كاملة من الإكسير ، ثم فعلت معها ما فعله (بيلاسكو) معى ..

وكان المنظر غير معسوق ..

فى البدء تهاوت جثتها الشاحبة الخالية من الدماء أمامى .. بعد جهد عنيف كلفنى ذلك من أعصابى .. آخرها فى الواقع ..

ثم رأيتها تتكلم بصوت مبحوح ..

ورأيت عينيها ترمقانى فى ثبات ..

قلت لها الكلمات الشهيرة :

ـ « أنت لن تموتى .. ستعيشين لتكونى من إخوة الدم .. وعندها تلفظين خطايا الماضى .. »

ثم همست فى أذنها :

ـ « (هـو) ـ الـذى يمشـى فـى الظـلال ـ يريدك .. »

ومن ليلتها صارت الصديق الوحيد الذى يؤنس وحدتى ..

لكن عددنا ازداد بعد حين ..

صارت كل البيوت المجاورة منّا ..

وصرنا أقوى .. وامتلكنا الجرأة كى نجهر بحقيقتنا ..

* * *

حكاية الشاحب الرابع

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال (بيلاسكو) :

(هو) - الذى يمشى فى الظلال - أمرنى أن أضع (إيرما كالسكا) أو ابنتها ..

★ ★ ★

الحق أننى كنت ميالاً إلى تذوق دماء الفتاة .. فهى دماء غضة شابة ربما تبعث الحياة فى وجودى المحتضر ..

لكن ما باليد حيلة .. ومن العسير أن تجد كل ما تريد ..

★ ★ ★

أنا مدرس فى مدرسة القرية .. أرسل منذ فترة قصيرة .. ولى ابن فى السادسة عشرة من عمره .. اسمه (كوثار) ..

إن الحياة تمضى فى القرى على غرار (هالماجيو) بشكل رتيب جداً .. لا شىء يحدث .. يمكنك أن تعرف أن الأمور ستمضى على هذا المنوال بعد عامين أو عشرة .. يمكنك أن تحدس من سيتزوج مَنْ مِن

المراهقين الذين تراهم فى كل مكان .. يمكنك أن تخمن أول الموتى فى الفترة القادمة ..

الحياة - حقاً - رتيبة فى (هالماجيو) ..

لكننا منذ شهرين عرفنا الإثارة الحقيقية ..

فبعد أن تغرب الشمس يبدأ المرح ، وينتشر إخوة الدم فى الشوارع يرقصون ويصخبون .. وتشعل النار العظمى التى تضىء لنا كل شىء .. ويغادر إخواننا بيوتهم بعد يوم طويل قضوه ينتظرون فى الظلام تلك اللحظات ..

هو ذا (إستبان) وهذا (بوريس) وتلك (هيلدا) .. أو تلك هى أسماؤهم القديمة قبل أن يصيروا (شيطان الظلام) و(نهر النار) و(زهرة القبور) .. أما صار اسمى (الدم) وهو اسم جميل حقاً ..

- « كيف حالك يا (نهر النار) ؟ »

- « أسوأ من حالك يا (دم) .. »

وفى هذا المجتمع صار لكل منا زوجة ..

أنا زوج (إليصابات) التى صار اسمها (حدأة الصحراء) .. صحيح أننا لا نرى بعضنا إلا ليلاً .. لكن تفاهمنا تام ..

ويسرني هنا أن أقول إن (حداة الصحراء) تنتظر أول مولود في مجتمعنا الجديد .. أول طفل يولد شاحبًا .. وقد دنا الموعد جدًا ..

حول النار تحتشد وتتلو عبارات الخضوع لـ (هو) ـ الذي يمشي في الظلال ـ الذي نرتقب خروجه من الكهف متى بلغ عددنا رقمًا معينًا ..

ما هو هذا الرقم المبارك ؟

لا أحد يعرف .. ربما كان ستين أو سبعين أو مائة .. وربما تتم هذه المعجزة اليوم بالذات ..

لقد دأبنا على زيادة عددنا .. كلما وجدنا متطفلاً من جنوب القرية عندنا .. كنا نقبض عليه ، ونرغمه على أن يكون منّا ..

متطفل اليوم هو الشاب (أنطونيسكو) ابن القصاب .. يبدو أنه قد تسلل ليلاً ليرى ما يحدث عندنا .. وكان يحمل خنجرًا ومشعلاً .. أنا أعرف أنه يحب (إيرينا لاسكي) ولم يستطع أن يتفهم موتها قط ..

لكنه كان أحمق بما يكفي لأنه رأى ابني (الكابوس) ـ أعني (كوشار) سابقًا ـ وحسب أن الشباب يفهم الشباب أكثر من سواه .. حاول أن يكلمه .. ناداه ..

وكان (الكابوس) حريصًا بما يكفي .. إذ دنا من صاحبنا وتبسط معه في الكلام .. ثم على حين غرة أمسك معصميه بكلتا يديه ، وأطلق صرخة طويلة ـ صرختنا ـ فهرع الإخوة من كل حدب وصوب ، وأحاطوا بالفتى بعصيهم ومداهم ..

وكان الباقي معروفًا .. ربطنا قدميه وعلقناه في شجرة .. نسيت أن أقول إننا أرغمناه على شرب الإكسير .. كان يصرخ ويحاول أن يبصق ما تصبّ في فمه لكن الإعياء غلبه فجرع يضع جرعات ..

وحين علقناه من قدميه كما في أوراق (التاروت) لم يفهم المراد منه ..

دنت كاهنتنا وأحدثت الجرح إياه في وريد عنقه الودجي ..

ثم رحنا نتناوب ملء الكئوس من الدم .. الدم الأحمر الفائر .. الذي يكفي لإطعام طعام ثلاثين منا ..

إن الدم سائل ساحر حقًا .. كوب واحد يجدد نشاطك لمدة يومين .. ولا يوجد كوب من أي مشروب في العالم له هذا التأثير .. لكن الحظ كان يحمل لنا مفاجآت باسمة أكثر ..

وكان (الكابوس) حويطًا بما يكفى .. إذ دنا من صاحبينا وتبسط معه فى الكلام ..

لقد وجدنا غريبين متطفلين فى دار (الدماء السوداء) .. لقد تمكن من القبض عليهما وحده بإرادة جديرة به ..

وكان أحدهما يتكلم الرومانية وهو صحفى مكتنز فاخر المظهر من (بوخارست) ، وأنا أمقت أهل (بوخارست) لأنهم يعتبروننا نحن الفلاحين حمقى ..

أما الآخر فلا أجد له وصفًا سوى أنه يشبه دودة (الإسكارس) فى كتب التاريخ الطبيعى التى أشرحها للتلاميذ .. ويبدو أنه أجنبى ..

كانا مذعورين يحاولان تفسير الموقف ، ويبدو أن الصحفى كان يحاول تخويفنا بمنصبه وصلاته .. لكن الشيوعيين لن يرهبونا .. لا هم ولا الرأسماليون ولا أية قوة أخرى ..

عندما تقرر المعاملة اللائقة بهذين سيبدأ المرح الحقيقى ..

اقترح أحد الواقفين أن تستنزف دماءهما حالاً .. وأنا أمقت ضيق الأفق بشكل غير عادى .. إن التكرار مقيت دائمًا ..

لقد فرغنا من استنزاف دم (أنطونيسكو) ..

وهو ذا قد بدأ يتحرك وهو متدلٍ من الحبل .. وقد بدت عليه أولى علامات الصحة : لم يعد الوضع المقلوب يضايقه .. إنه قد اكتسب طبيعة الوطاويط التي تقضي حياتها مقلوبة دون ضيق .. ثم إن جسده لم يعد يحوى دماء تتجمع في رأسه وتشعره بالاختناق والاحتقان ..

أقول إن (أنطونيسكو) قد صار منا ، ولشد ما أثارت صحوته الهلع في نفسي ضيفينا .. لقد أثار موته الذعر في نفسيهما .. لكن صحوته جعلتهما يوشكان على الموت بدورهما ..

لم يعد هناك داع لاستئناف آخر هذه الليلة ..

إن ضيفينا سيجدان كثيرًا من المرح في الكهف ..

* * *

ـ ٢ ـ

كان (كوثار) ـ أو (الكابوس) ـ هو من قادني إلى إخوة الدم ..

في البدء كان مراهقًا عاديًا يضحك من قلبه ويغني ويتشاجر ويحب ، ثم بدأ التحول المعهود : صار شاحبًا .. وصار يفضل الجلوس وحيدًا في الظلام ، وحوله تلك الرائحة العطنة التي صارت شعارنا ..

وقد حسبته في البدء مصابًا بخلل نفسي من هذا الذي يعتري المراهقين ، وانتدبت بمخاوفي لد.(ميخائيل) الذي جاء وفحصه برغمه .. وأعلن أنه مريض جدًا .. وكتب لي قائمة طويلة من المستحضرات العلاجية التي تُشرب أو تُبلع أو تُدهن أو تُمص أو تُشم أو تُحقن ..

لكن (كوثار) ـ لم يكن قد صار (الكابوس) وقتها ـ غضب جدًا عليّ بعد انصراف الطبيب .. وقال لي إن كل هذا شأن من شئونه ، وهددني لو جعلت الأمر أكثر ذيوعًا بأن يقتلني ..

الحق أننا لم نعتد (قلة الأدب) الأمريكية هذه في ريف (رومانيا) ..

ربما سمح الآخرون لأنفسهم بذلك ، لكن الأمر يختلف هاهنا .. إن الابن الوقح يُصفع ، وربما يُطرد لو أراد الأب ..

وهكذا ضربته ضربًا لا بأس به .. وحبسته في غرفته ، وهو ليس عقابًا حقيقيًا بالنسبة له ، هو الذي يقضي عشرين ساعة يوميًا وحده في حجرته ..

وفي المساء دخلت حجرته ، حيث كان جالسًا في الظلام لا يفعل أي شيء في الواقع ..

جلست جواره وقلت له بصوت أبوي هادئ :

ـ « ها نحن ذان معًا .. صديقان يتسارّان .. قل لي ما يضايقك .. »

قال لي وهو يخرج قنينة من جيب سترته :

ـ « كل ما هنالك هو أنني لا أشعر بأنني بخير .. صدقني .. هذا هو كل شيء .. لم أعد أتحمل أية ضوضاء من أي نوع .. »

وقرب القنينة من فمه وأردف :

ـ « ولا الضوء .. ربما هي مسألة أعصاب كما تعلم .. »

صحت وأنا أمسك يده في عنف :

ـ « وهذا؟ هل هو خمر ؟ هل تشرب يا (كوثار) ؟ »

هزّ رأسه وابتسم .. لمحت بسمته في الضوء الخافت وقال :

ـ « لا يا أبت .. إنه مجرّد منشط طبي .. ثق بي .. »

ورأى نظرة الشك في عيني ، فقرب القنينة من فمي وقال :

ـ « هلم ذقه .. لتكون مطمئنًا .. »

لامست القنينة بشفتي وعيناي لا تفارقان وجهه ..

حقًا لم يكن ما بها خمرًا .. بل هو سائل غير معهود .. عطر الرائحة قليلاً .. له مذاق الزنجبيل لو أضيف له النعناع ..

وكان هذا خطأ .. لقد تركت لقدميّ أن تنزلقا إلى ذات الشرك ..

ويبدو أنه كان جاثمًا فوق عنقي .. وبصعوبة عرفت أنه يمتص الدماء من وريدي المنتفخ .. وهي عملية مرهقة استغرقت ساعة أو أكثر .. لكنها لم تكن سيئة على الإطلاق ..

فقط سمعته يلهث هامسًا :

- « أنت لن تموت .. ستعيش لتكون من إخوة الدم .. وعندها تلفظ كل خطايا الماضى .. »

ولم أفهم ما يقول وقتها .. لكنى فهمته الآن بعد ما عشت حتى ضممت ستة غيرى إلى إخوة الدم .. وكذلك فهمت عبارته التالية :

- « هو - الذى يمشى فى الظلال - يريدك .. »

★ ★ ★

الحق أنها كانت خبرة غير معتادة ..

نحن فى (رومانيا) .. والكلام عن مصاصى الدماء يبدأ منذ أن يكون الطفل فى مهده .. لكن ما حدث لم يكن مصّ دماء كما تعرفه .. كان استنزاف دماء لشربها .. ولم يمت أحدنا غير ثلاثة أيام بعدها يغادر قبره ليمارس مهنته .. ولم نكن خالدين حتمًا لأن أحدنا مات بنوبة قلبية منذ أسابيع .. وإحدانا - كانت تدعى (إيزبيا) - ماتت فى أثناء الولادة مع وليدها ..

لكننا - وقد تزايد عددنا تدريجيًا - كنا نعرف أننا نشكل البذرة لنبتة ما .. نبتة عملاقة ..

ما هو الغرض من وجودنا ؟

لا ندرى .. سل أية نبتة عن الغرض من وجودها ، وانتظر أن تجيبك إجابة مقنعة ..

لكن الروح الكبرى - كاهنتنا التى شرفت بضمها - جعلتنا نعرف أن لنا هدفًا واحدًا .. هو أن نكون موجودين حين يخرج هو - الذى يمشى فى الظلال - من الكهف ..

- « عندها سيهدى السلام الكواكب ، ويتوارى كوكب المشترى مع المريخ ، ويصير القمر فى المنزلة السابعة .. »

- « ويكون هذا هو فجر برج الدلو .. »

هذه الكلمات من مسرحية (شغر) تعبّر بصدق عن آمالنا ..

آمالنا التى لن نتركها للمتطفلين القادمين من (بوخارست) ..

حتى ولو كان أحدهم يشبه دودة (الإسكارس) ..

★ ★ ★

حكاية الطبيب النحيل

يكملها هو بنفسه

قال د. (رفعت) :

كان الكأس أمام شفتي .. ولم أكن أعرف ما سيحدث ، لكنه حتمًا لن يتضمن أن أشرب هذا السائل الكريه .. فليقتلوني إذا أرادوا .. وكل ما أرجوه هو ألا يكونوا غليظي القلب إلى حد صب هذا الكأس في فمي عنوة ..

هنا جاءت النجدة في صورة رجل نحيل أصلع الرأس ، رفع يده في حزم .. وصاح قائلاً شيئًا ما ..

دخلوا في جدل طويل لم أفهم منه حرفًا .. لكني كنت أرمق شيئًا معينًا في اهتمام .. إن الفتى المعلق من قدميه ـ والذي أفرغوا دمه أمامنا ـ يتحرك !

ابتسامة شيطانية تتلاعب على شفتيه .. ثم يكشر عن أسنانه .. يفتح عينيه .. لحسن حظ (جوستاف) أنه لم ير هذه النظرة بالذات ..

إنه حيّ .. حيّ وسعيد .. كأنه ينعم بوضعه الطبيعي المثالي .. ذكرني بوطواط معلق يهضم ما التهمه من حبات العنب في رضا ..

سمعت (جوستاف) يقول لي :

www.al-maktabeh.com/vb3

- « إن هذا الرجل .. »

- « المعلّق ؟ »

- « لا يا أحمق .. أعلى الأصلع .. يقول إنه لا داعى لاستنزاف دمنا الليلة .. وقد اقترح أن يدخلونا الكهف على سبيل المرح ! »

- « الكهف ؟ مرح ؟ »

- « هذا ما قال .. »

- « وما الموجود فى الكهف ؟ »

- « لا أدرى .. لكنه بالتأكيد أسوأ من تعليقنا من الأقدام ، واستنزاف دمنا عن طريق أوردة العنق ! »

أخيرًا بدأ القوم يتحمسون ..

وعرفت أن فكرة الكهف قد راقت للجميع ..

بدءوا يدفعوننا وهم يشكلون دائرة واسعة حولنا ، قاصدين ذلك الكهف السخيف ، عطن الرائحة ..

قال (جوستاف) وهو يرمق وجوههم الشاحبة تلتمع فى اللهب :

- « (رفعت) .. إن الأمر يبدو كأنهم يقودوننا إلى نوع من القربان الآدمى .. وأنا لا أحب هذا .. »

قلت لاهثًا :

- « أما أنا فأعتقد أنهم يقودوننا إلى مقبرة .. وأنا أكره هذا ! »

كان الكهف ينتظرنا ..

فمه الفاغر المظلم يحمل عشرات الاحتمالات .. وعشرات الإجابات لأسئلة لم نسألها .. ولم نرغب قط فى سؤالها ..

ما الذى ينتظرنا هناك ؟

★ ★ ★

فى الكتيب القادم تسمع حكاية الشاحب الثالث (كوثار) .. وتعرف السرّ وراء هذه اللعنة التى اجتاحت (هالماجيو) ..

ربما تعرف أيضًا - لو كان هناك وقت - ما حدث لنا داخل الكهف .

د. (رفعت إسماعيل)

القاهرة

مع تحيات منتدى ليلاس